تأمـــــــلات
فـــي
مطلـع سـورة الحجـرات

دكتور
أحمد رمضان مصطفى دياب
مدرس التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيراً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله وكفي بالله شهيداً .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله مولاه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيراً.

اللهم صلِّ علي هذا النبي الأمي وعلي آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد

فإن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى ، و الحجة البالغة ، و الكنز الخالد الذي لا ينفد ، و المدد الرباني الذي لا ينقطع ، والمشتمل علي التعاليم السماوية التي تصلح لكل زمان ومكان .

فضله الحق تبارك و تعالى علي سائر الكتب السماوية ، وحفظه من التغيير والتبديل.(وإنه لكتاب عزيز). لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [1].

ولقد كثرت الدراسات وتنوعت الأبحاث حول تلك المعجزة الخالدة وستظل تتعدد وتتكاثر إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إلا أن هذه الدراسات وتلك الأبحاث – مع تنوعها وتعمقها – ستظل قاصرة عن إدراك كل ما يحمله القرآن الكريم من آيات بينات وكنوز نفيسة ، وهذا إن دل علي شئ فإنما يدل علي أن هذا القرآن هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة وصدق رسول الله ﷺ القائل عن القرآن : (هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو

---

١ – آخر الآية ٤١ و الآية ٤٢ من سورة فصلت .

حبل الله المتين ، و الذكر الحكيم . و الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ،ولا تلتبس به الألسنة ولا يخلق عن كثرة الرد[1] ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر. ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم)[2]

لذلك اعتنى المسلمون – ومازالوا– بالقران عناية كبرى . شملت جميع نواحيه ، وأحاطت بكل ما يتصل به ، حتى زخرت المكتبة الإسلامية بالعديد من العلوم التي تخدم هذا الدستور الخالد.

وهذا البحث دراسة متواضعة . حاولت من خلالها خدمة القران الكريم الذي سيبقى دستور السعادة البشرية . وسيظل النبراس الهادي لمن طلب طريق النور والهدى والرشاد والفلاح في الدنيا وفي الآخرة.

وقد حاولت– قدر استطاعتي– في هذه الدراسة أن أسجل بعض التأملات في مطلع سورة الحجرات . أعني قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ ﴾[3] فقمت– بتوفيق الله تعالى– بكتابه هذا البحث متأملا في هذه الآية الكريمة مبيناً معناها وتفسيرها،ملقيا الضوء على بعض الدروس المستفادة منها علنا نصل إلى ما رجوناه من كتابة هذه السطور، وسميت هذا البحث

١ – يعني لا يبلي بكثرة القراءة والترديد

٢– من حديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القران ،باب ما جاء في فضل قارئ القرآن برقم ٢٩١٥ ، وقال: هذا حديث غريب،لا حديث نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول ، وفي حديث الحارث مقال.ا. هـ سنن الترمذي ٤/٤١٥
قلت : الحديث ضعيف ،لا يحتج به . والله أعلم

٣ – أول سورة الحجرات .

(تأملات في مطلع سورة الحجرات) واخترت أن يكون منهجي فيه

– بعد هذه التقدمة – على النحو التالي :

البدء بتمهيد – مختصر– بين يدي سورة الحجرات، للتعريف بتلك السورة العظيمة ،تحدثت فيه عن ترتيب السورة ، وزمان نزولها ، وعدد آياتها وتسميتها، ومناسبتها لما قبلها،والموضوعات التي اشتملت عليها

وبعد التمهيد تعرضت للآية القرآنية مشيرا إلى ما ورد فيها من القراءات مبينا سبب النزول،موضحا بعض المباحث العربية ومعاني المفردات ،ثم تعرضت للمباحث التفسيرية ، ثم ذكرت المعنى الإجمالي العام للآية الكريمة ، ثم تحدثت عن بعض ما ترشد إليه تلك الآية من دروس وعبر مستفادة ، ثم ختمت البحث ببيان مراجعه وفهرس الموضوعات .

والله اسألُ أن يتقبل مني عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله مؤديا الغرض المنشود من كتابته ،وأن ينفع به كل من أطلع عليه .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

والحمد لله رب العالمين

دكتور
أحمد رمضان مصطفى دياب
مدرس التفسير وعلوم القران
كليه أصول الدين بالقاهرة
جامعه الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد

فيحسن بنا قبل الشروع في بيان معنى الآية الكريمة أن نتعرف على سورة الحجرات من خلال هذا التمهيد الموجز ،والذي جاء مشتملاً على النقاط التالية :

أولاً: ترتيب السورة.

سورة الحجرات هي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب المصحف الشريف وقعت فيه بعد سورة الفتح وقبل سورة ق.

أما في ترتيب النزول فهي السورة الثامنة بعد المائة ، فقد نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم[1]

---

١ - الأمر في ترتيب السور حسب النزول ليس قطعياً ، فقد اختلف فيه العلماء : فمنهم من أجازه ومنهم من منعه ولكل وجهه هو موليها .والقول الراجح أن ترتيب السور توقيفي ، وهو الذي تؤيده الأدلة ، وما استدل به المخالفون لا يستقيم .راجع : فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم،صفحة ٣٠ .

ثانياً: زمان نزول السورة.

نزلت سورة الحجرات عام الوفود، سنة تسع من الهجرة العلية ، فهي سورة مدنية كلها ، بإجماع من يعتد بإجماعهم[2]، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير وعكرمة والحسن[3]. رضي الله عنهم أجمعين .

وفي مجمع البيان :عن ابن عباس أنها مدنية إلا آية واحدة ، وهي قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .... الآية -١٣- فمكية.[4]

٢- ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ١٤٤ تفسير القرطبي ١٩٨/١٦ فتح القدير ٥/ ٥٨ التحرير والتنوير ٢١٣/٢٦ الفتوحات الإلهية ١٧٣/٤ حاشية الصاوي على الجلالين ٩٠/٤

٣- ينظر: الإتقان ٢٦/١، الدار المنثور ٥٤٦/٧،روح المعاني ١٩٨/٢٦ فتح القدير ٥٨/٥

٤- مجمع البيان في تفسير القران للطبرسي ٨١/٢٦ روح المعاني ١٩٨/٢٦.

لأن هذه الآية – على ما ورد في سبب نزولها – نزلت بمكة عام الفتح.

• *أقول*: لعل هذا بني على ما عرف من أن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة ،أو على أن ما صدِّر بـ (يا أيها الناس) فمكي ، وما صدِّر بـ (يا أيها الذين آمنوا) فمدني.

والحق أن الأخير ليس بمطرد ، وقد وجد من الشواهد ما يخالفه .

وأما الأول ، فالذي عليه الجمهور أن المكي هو ما نزل قبل الهجرة وإن كان خارج مكة،والمدني هو ما نزل بعد الهجرة وإن كان خارج المدينة ،وهو ما أميل اليه

وعليه : لا مانع من القول بمدينة السورة كلها جملة وتفصيلاً ، والله أعلم.

• وحكي قول شاذ: إنها مكية[1]، ولم يعرف قائله ، لذلك لا يعول عليه ولا يعتد به ، لمخالفته الظواهر والشواهد.

ثالثاً : عدد آيات السورة.

لم يختلف أحد من العلماء في عدد آيات سورة الحجرات ، لا في إجمال ولا في تفصيل ، فهي ثماني عشرة آية ، في عد جميع العادين[2]

فائدة:

هذه السورة الكريمة ثماني عشرة آية ،وثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفا[3]

رابعاً : تسمية السورة :

تسمى هذه السورة الكريمة بسورة (الحجرات) لورود هذا اللفظ فيها ، وذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ

---

١ - حكاه هكذا- بصيغة التضعيف- السيوطي في الإتقان ٣٢/١.

٢ - الاتقان١٩٠/١ روح المعاني ١٩٨/٢٦ التحرير والتنوير٢١٣/٢٦.

٣ - ذكره الخازن في تفسيره١٧٥/٤.

٤- الآية ٤ من سورة الحجرات .

﴿ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (١) (٤).

فهي تعرف في جميع المصاحف وكتب التفسير والحديث بسورة (الحجرات) ، وليس لها اسم غيره.

ولعل سر التسمية بهذا الاسم هو أن هذه الآية الكريمة – على قصرها– تمثل أهم ما اشتملت عليه السورة وما تضمنته من موضوعات .

لأن السورة الكريمة إنما جاءت بالتنويه بشأن النبي الكريم وبيان علو درجته عند الله،وتوضيح ما يجب على المؤمنين تجاه هذا النبي من التكريم والتوقير والتبجيل والاحترام، لأن مقامه يعلو كل مقام وحقه مقدم على جميع الحقوق حتى على حق النفس ، قال تعالى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) . وهذا من مقتضيات الإيمان.

• فإذا كان هذا هو هدف السورة ومقصودها وقفنا على سر تسمية السورة بهذا الاسم (الحجرات). . فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يسجل على وفد بني تميم فظاعة ما جسروا عليه تجاه النبي ويبين لهم شناعة ما فعلوه ، حين صاحوا بالنبي ونادوه باسمه في حال خلوته ووقت راحته من وراء الجدر ، وهذا الفعل لا يليق مع من كرمه الله واصطفاه على سائر الناس، ولتحذر الجماعة المسلمة من الوقوع في مثل هذا الأمر ، الذي يعود على فاعله بالوبال في الدنيا والآخرة.

• وكأني استشعر من هذه التسمية وجهاً آخر:

فبالنظر إلى هذا الاسم – الحجرات – على وجازته وبساطته مبني ومعني كأن السورة بهذا الاسم تريد أن تقول لنا: أيها المسلمون صححوا موازينكم ودققوا في معاييركم، إن عظمة الأمم شعوبا

١ – الآية ٤ من سورة الحجرات .

٢– أول الآية ٦من سورة الأحزاب .

وأفرادا وجماعات لا تقاس بمقدار ما تملك من شهوات الدنيا – نساء وبنين ودراهم ودنانير وعقارات وأطيان ، ونحو ذلك – إنما تقاس عظمة الأمم بمقدار ما يكون لأفرادها من رصيد في بنك مكارم الأخلاق.

وإذا كانت ديار الظالمين تبقى ذكرى لأولي الألباب يعتبرون برؤيتها،فيفرون من الإعراض عن ذكر الله إلى إتباع الهدى وما أنزل الله تعالى ، رغبة فيما عند الله والدار الآخرة. فكذلك ديار الصالحين مع الفارق في وجه الاعتبار.

إن هذه الحجرات المباركة كانت منازل المتقين ، بين جنبات هذه الحجرات – ذات الأمتار المعدودة ،واللبنات من الطين ،والسقف من الجريد – عاش معلم البشرية وقائدها الأغر، سيد الأنبياء والمرسلين ورسول رب العالمين ،عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

هذه الحجرات كانت مهبط الأمين جبريل – عليه السلام – بالوحي من السماء ، فأحيا به القلوب بعد موتها ، هذه الحجرات كانت مدارس أمهات المؤمنين،التي تخرج منها أجيال وأجيال ، حملوا مشعل الهداية والنور علما وفقها وعملا، حتى أوصلوه إلينا ، فانتفع به أهل المشارق والمغارب.

ولهذا بكى سلفنا الصالح لهدم تلك الحجرات يوم أن أمر الوليد بن عبد الملك بهدمها وإدخالها في المسجد النبوي ،لأن بقاءها له في القلوب مغزى ومعنى.

ولقد قال سعيد بن المسيب يومئذٍ:

(والله لو وددت أنهم تركوها على حالها ، ينشئ ناشئ من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق،فيرى ما اكتفى به رسول الله في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر في الدنيا).

وقال يومئذ أبو أمامه بن سهل بن حنيف:

(ليتها تركت فلم تقدم ، حتى يقصر الناس عن البناء ،ويرون ما رضي الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده) [1].

• أأدركت الآن-أخي الكريم- سر تسمية هذه السورة بهذا الاسم، وأيقنت أن هذا اللفظ (الحجرات) جدير بأن تسمى به هذه السورة المباركة .

والله أعلم بأسرار كتابه.

خامساً: مناسبة السورة لما قبلها.

إن القارئ لسورة الحجرات وسابقتها – أعني سورة الفتح- ليجد بينهما ارتباطاً وثيقاً، يظهر من عدة وجوه ،أشار إليها سادتنا علماء التفسير ومنهم الإمام الرازي ، حيث قال رحمه الله :

في بيان حسن الترتيب وجوه:

أحدها: أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي من الصلح وترك التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كان رسول قال لهم على سبيل العموم:لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله.

الثاني :هو أن الله تعالى لما بين محل النبي وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه،وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين ،قال لا تتركوا من احترامه شيئا لا بالفعل ولا بالقول ولا تغتروا برأفته وانظروا إلى رفعة درجته.

الثالث : هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء [2] ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظرا إلى جانب الله ،وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء

---

١ – الدر المنثور٧/٥٥٤

٢ – يعني على الكفار

في الكتب المتقدمة بقوله (ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل) [1] فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترما ووعدهم بالأجر العظيم ،فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجكم وإحباط حسناتكم. [2]

• ويقول العلامة أبو حيان :

ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ،لأنه ذكر رسول الله وأصحابه ثم قال (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات). فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض الشيء مما ينبغي أن ينهى عنه ، فقال تعالى

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) [3].

• ويزيد العلامة الألوسي من وجوه الصلة بين السورتين فيقول :

ولا يخفى تواخيها مع ما قبلها ،لكونهما مدنيتين ، ومشتملتين على أحكام ،وتلك فيها قتال الكفار وهذه فيها قتال البغاة ، وتلك ختمت بالذين آمنوا وهذه افتتحت بالذين آمنوا ، وتلك تضمنت تشريفات له – خصوصا مطلعها – وهذه أيضا في مطلعها أنواع من التشريف له عليه الصلاة والسلام [4].

• إلى غير ذلك من وجوه المناسبة التي تظهر باستقراء السورتين ، وفيما ذكر من الوجوه السابقة غنية ،والله أعلم .

سادساً: الموضوعات التي اشتملت عليها السورة .

هذه السورة الجليلة ،ذات الثمانية عشرة آية تعتبر – على قصرها- من عظائم السور القرآنية،حيث وضعت للمسلم أروع المثل الإنسانية في الآداب والأخلاق

---

١ – من الآية ٢٩من سورة الفتح

٢ – التفسير الكبير ٢٨/٢٥ .

٣ – البحر المحيط ٩/٥٠٦ .

٤ – روح المعاني ٢٦/١٩٨ .

والأعمال والمعاملات، مع تضمنها لحقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة .

ويتضح ذلك من هذا العرض العام للموضوعات التي تناولتها السورة الكريمة .

١- ابتدأت السورة الحديث بالأدب الرفيع الواجب على المؤمنين أن يتأدبوا به مع خالقهم سبحانه وتعالى ومع رسوله يتمثل هذا الأدب في إدراك العبد المؤمن لحدوده أمام ربه ،وأمام هذا الرسول الذي يبلغ عن الرب أوامره ونواهيه فلا يسبق العبد المؤمن ربه أو رسوله في أمر أو نهي ولا يقترح عليهما في قضاء أو حكم ،ولا يتجاوز ما يأمران به وما ينهيان عنه ، ولا يجعل لنفسه معهما إرادة أو رأياً ،تقوى من العبد لربه وخشية وحياء منه لله ورسوله وأدباً، فيقول الله تعالى في مطلع سورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ (١).

٢- ثم تنتقل السورة إلى تقرير أدب آخر ،وهو أدب خاص بتوقير النبي الكريم يتمثل هذا الأدب في خفض الصوت حال المحادثة مع الرسول تعظيما لقدره الشريف ،واحتراما لمقامه السامي ،فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول رب العالمين .فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ

١- الآية الأولى من سورة الحجرات.

مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (١).

٣- ثم تنتقل السورة إلى تقرير دعائم المجتمع الفاضل ، حيث وضعت المنهاج الصحيح في التعامل مع الشائعات ، يتمثل هذا المنهاج في التثبت من الأقوال والأفعال، و الاستيثاق من مصدرها قبل الحكم عليها ،لاسيما إن كان هذا الخبر صادرا عن شخص متهم ، فكم من خبر جر وبالا ، وكم من كلمة سببت العديد من الكوارث ، يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢).

٤- ثم انتقلت السورة بعد ذلك للحديث عن جانب من فضل الله تعالى ونعمته على هذه الأمة المحمدية ، يتمثل هذا الفضل أولاً في وجود النبي وثانياً بأن حبب الله إليهم الإيمان وحسنه في قلوبهم ،وثالثاً بأن بغض إليهم هذا الثالوث القذر- الكفر والفسوق والعصيان- الذي يتنافى مع الإيمان الصادق ، فقال تعالى﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

٥- ثم تنتقل السورة في سياقها إلى الحديث عن النظم

١- الآيات ٢:٥ من السورة.

٢- الآية ٦ من السورة.

٣- الآيتان ٧،٨ من السورة

والإجراءات العملية الواجبة على جماعة المؤمنين تجاه إخوانهم ، إذا ما وقع بينهم نزاع أو خلاف ، فبينت السورة العلاج الناجع [1] لهذا الأمر لأنه لو وقع وترك بغير علاج لتخلخل كيان المجتمع المسلم ، ويتمثل هذا العلاج في إجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة الإيمانية ، ومن حقيقة العدل والإصلاح، مرتبطة بتقوى الله تعالى ، فأمرت السورة بالإصلاح بين المتخاصمين ، وبمقاتلة الفئة الباغية إذا أصرت على بغيها ورفضت الصلح ، وليكن هذا الصلح مصحوبا بالعدل ،بعيدا عن الجور على إحدى الطائفتين ،قال تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [2].

٦- وتستمر السورة في دعوتها إلى مكارم الأخلاق والتحلي بالفضائل الاجتماعية ، والبعد عن الرذائل السلوكية ، مراعاة للآداب النفسية في مشاعر هذا المجتمع الإسلامي تجاه بعضه البعض، وبيانا لحق المسلم الحاضر على أخيه المسلم ، فحذرت السورة من بعض أمراض اللسان السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب- حفظا للكرامة واحتراما لأخوة الإسلام .

كما تحدثت عن الأدب الواجب على المسلم تجاه أخيه المسلم الغائب حفظا لعرضه وستراً لعيوبه،فالمسلم يحيا في مجتمع نظيف المشاعر مكفول

---

١ - الناجع بمعنى النافع المؤثر.

٢ - الآيتان ٩، ١٠ من السورة

الحرمات، مصون الحضرة والغيبة،لا يؤخذ فيه أحد بظنه ، ولا تتبع فيه العورات ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس فجاءت الآيات محذرة من سوء الظن ومن تتبع عورات المسلمين ومن الغيبة والنميمة، وقد جاء النهي عن الغيبة مصحوباً بتعبير رائع عجيب ، أبدعه القران غاية الإبداع ، لقد مثل القران من يغتاب غيره برجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل من لحمه ، ويا له من تنفير عجيب يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [1].

٧- ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى تقرير وحدة الأصل للبشر جميعاً مع اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم ،فالأصل واحد ، والكل سواسية كأسنان المشط ، وأكرم الناس عند الله أتقاهم له وأشدهم خشية ،فميزان الله تعالى العليم الخبير – الذي يقوم به الجميع – لا يحابي أحدا،لبراءته من شوائب الهوى ، وبعده عن الأمور الدنيوية قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ

---

١ – الآيتان ١١، ١٢من السورة

لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

٨- ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى تحديد معالم الإيمان ،بتوضيح أركانه وشروطه ،فقامت السورة بالرد على أدعياء الإيمان من الأعراب الذين ظنوا الإيمان مجرد كلمة تقال باللسان ،وجاءوا يمنون على رسول الله إيمانهم ،وبينت لهم حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام ، كما وضحت الشروط الواجب توافرها في المؤمن الكامل ، تتمثل هذه الشروط في الإيمان الصحيح والإخلاص والجهاد – بالنفس والمال – في سبيل الله تعالى والعمل الصالح ، قال تعالى (قالت الأعراب آمنا..... والله بكل شيء عليم)[2] .

٩- وفي الختام أرشدت السورة إلى نعمة الله تعالى على خلقه ، متمثلة في هدايتهم إلى الإيمان،هذه النعمة العظيمة التي تستوجب الشكر من العبد لربه ، لا أن يمن العبد على خالقه بإيمانه ،فالخالق وحده تعالى هو صاحب المنة ،لأن العليم البصير، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ،قال تعالى ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[3].

وهكذا...نجد السورة في محتواها الفكري دعوة كريمة إلى الأخلاق والآداب السامية ، والعقيدة الصافية ،دعوة لإصلاح الفرد والمجتمع ،فهي لذلك جديرة بالدراسة ،حرية بالفهم

١ – الآية ١٣من السورة

٢ – الآيات ١٤: ١٦من السورة

٣ – آخر سورة الحجرات

وإمعان النظر،لما فيها من كنوز هذا القرآن العظيم.

جعلنا الله تعالى من المتدبرين لكتابه ، العاملين بما فيه ، المتبعين لسنة نبيه ﷺ

والحمد لله رب العالمين..

والآن مع تأملات في مطلع سورة الحجرات .

والله تعالى من وراء القصد.

يقول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ .

القراءات القرآنية

اختلف القراء في قوله تعالى(لا تقدموا).

فقرأ الجمهور (لا تقدموا) – بضم التاء المثناه الفوقية وفتح القاف وكسر الدال المشددة – من التقديم، على أن المفعول محذوف ،تقديره شيئا أو أمراً أو ما لا يصلح . أو نحو ذلك.

وهي قراءة سبعية متواترة ، معناها: لا تقدموا أمراً على ما أمركم الله ورسوله به.

• وقرأ يعقوب (لا تقدموا) – بفتح التاء والقاف و الدال المشددة – من التقدم ،على أن أصل الفعل

(تتقدموا)،فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

وهي قراءة عشرية [1] ، معناها: لا يكن منكم تقدم ، أو : لا تفعلوا ما تؤثرونه وتتركوا ما أمركم الله ورسوله به.[2]

• وقرئ (لا تقدموا) بفتح التاء وسكون القاف وفتح الدال المخففة وهو مضارع (قدم) بكسر الدال- من القدوم ، وهي قراءة شاذة ، معناها: لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها، ولا تعجلوا عليها[3] .

• وقرئ (لا تقدموا) بضم التاء وسكون القاف وكسر الدال المخففة من أقدم .

وهي كسابقتها قراءة شاذة ، معناها:لا تقدموا على شيء .[4]

• وقرئ (لا تقدموا)-بتشديد التاء-على إدغام تاء المضارعة في التاء بعدها [5] . وهي كذلك قراءة شاذة . والله أعلم .

سبب النزول

ذكر المفسرون لنزول تلك الآية أسباباً متعددة وروايات مختلفة . تلتقي كلها عند معنى واحد، ويصلح كل واحد منها أن يكون سببا لنزولها ، من هذه الروايات:

١- ما روى عن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما-أنه قال : قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ ،فقال أبو بكر : أمِّر[6] القعقاع بن

١ - مروية عن ابن عباس والضحاك ويعقوب وأبي حيوة والحسن وابن مقسم.

٢- ينظر:النشر٢/٢٨١،البدور الزاهرة /٢٩٩،الإتحاف، /٥١٢ المحتسب ٢/٣٢٧..

٣- الكشاف ٤/٣٤١،البحر المحيط ٩/٥٠٧، ولم أقف عليها في كتب القراءات .

٤ - الفتوحات الإلهية ٤/١٧٣، ولم أقف عليها في كتب القراءات .

٥ - ذكرها أبو حيان في البحر -٩/٥٠٧، وعزاها لبعض المكيين .ولم أقف عليها في كتب القراءات .

٦ - يعني :استعمله على قومه واجعله أميراً عليهم

معبد ، وقال عمر : بل أمِّر الأقرع بن حابس ،فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي ،فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما.....

فأنزل الله الآية.[1]

٢- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما- أنها نزلت في عمرو بن أمية الضمري ، وقتله لرجلين من بني سليم ، وذلك أن رسول الله ﷺ قد بعث سرية إلى تهامة عددها سبعة وعشرين رجلاً،وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فقتلهم بنو عامر ، وعليهم عامر بن الطفيل ،إلا ثلاثة نفر نجوا من السرية ، فلقوا أثناء رجوعهم رجلين من بني سليم قرب المدينة ،فسألوهما عن نسبتهما فاعتزيا إلى بني عامر ،لأن بني عامر أعز من بني سليم ،فقتلوهما وسلبوهما،ظناً منهم أنهم بذلك أدركوا ثأراً لقتلى المسلمين ،ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه .فقال ﷺ :

(بئسما صنعتم ،كانا من سليم - يعني أهل العهد - والسلب ما كسوتهما) فوادهما رسول الله ﷺ،وأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله...)[2]

يعني : لا تفعلوا شيئا من تلقاء أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله ﷺ.

٣- وعن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- أن ناساً كانوا يتقدمون شهر رمضان بصيام - يوما أو يومين- فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله...)

١- أخرجه- بنحوه - البخاري في كتاب التفسير ،باب قوله تعالى لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي. برقم ٤٨٤٦ .
صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٨/ ٤٥٤، وأخرجه الطبري في الجامع ٢٦ /١١٩ ، وأورده الو احدي في أسباب النزول /٢١٥ وأورده السيوطي في الدر المنثور ٧/٥٤٨، وكذا في لباب النقول /١٩ ٩.

٢ - الكشاف ٤/٣٤١،روح المعاني ٢٦/٢٠٢، التحرير والتنوير ٢٦/٢١٧.

(يعني لا تصوموا قبل نبيكم)[1].

٤- وعن الحسن - رضي الله عنه- أنها نزلت في قوم ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة، فأمرهم النبي ﷺ أن يعيدوا الذبح.[2].

٥- وعن قتادة- رضي الله عنه- أنها نزلت في ناس كانوا يقولون : لو أنزل في كذا كذا وكذا، ولو صنع كذا لكان كذا وكذا ، فكره الله ذلك وأنزل الآية.[3]

أقول :

بالنظر إلى هذه الروايات نجدها كلها صحيحة ، ولا يبعد أن تكون كلها حصلت ونزلت بعدها الآية، كما لا يبعد أن تكون الآية نزلت بدون سبب .

والظاهر عندي- والله أعلم - أن الآية عامة في كل قول وفعل، وأنها إرشاد عام يشمل الكل،ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات وتقدم واستبداد بالأمر وإقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة.[4]

والذي أرجحه من هذه الأسباب هو الأول ، المروى عن ابن الزبير في قصة وفد بنى تميم ، لأنه هو السبب الوحيد الذي يتناسب مع بقية الآيات المتصلة بالآية الأولى ، فضلاً عن أنه أصح الأسباب المذكورة سنداً وأوضحها . والله أعلم ما كان السبب لنزول الآية

وقد عرفنا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

١- الدر المنثور ٧/ ٥٤٧ ،لباب النقول /٢٠٠، الكشاف ٣٤١/٤ ،تفسير الخازن ١٧٥/٤.

٢- جامع البيان ١١٧/٢٦ ،المراجع السابقة .

٣- جامع البيان والدر المنثور ولباب النقول الكشاف في نفس المواضع السابقة

٤ - وإليه ذهب كثير من المفسرين ،كالرازي في تفسيره ٩٥/٢٨، وابن العربي في أحكام القران ١٤٤/٤

المباحث العربية ومعاني المفردات

قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا .

(يا أيها) كلمة مكونة من ياء وأي وها .

أما(يا) فحرف نداء مبنى على السكون ،لا محل له من الإعراب ،وهو عبارة عن صوت يهتف به المنادى بمن يناديه ،وضع في الأصل لنداء البعيد حقيقة أو حكماً [1] ، وقد ينادى به القريب إذا كان ساهيا أو غافلا ،تنزيلا له منزله البعيد ،وقد ينادى به القريب الذي ليس بساهٍ ولا غافل، إذا كان الخطاب المرتب على النداء في محل الاعتناء بشأن المنادى [2].

وقد يرد حرف النداء هذا - يا- للتأسف والتلهف والتنبيه ،كقوله تعالى﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾[3].

وقد يأتي للتلذذ ، كقول الشاعر:

(يا بردها على الفؤاد لو تقف)[4]

• وهذا الحرف - يا- أصل حروف النداء ، وأكثرها استعمالا، لذلك لا يقدر عند حذف حرف النداء سواه ،ولا ينادى اسم (الله) و(أيها)

و(أيتها) إلا به [5] .ومنه قوله تعالى ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا ﴾[6] والتقدير(يا يوسف)...

---

١ - ومنه قول الداعي(يا الله) وربما يقال :كيف تكون لنداء البعيد والله تعالى أقرب لعبده من حبل الوريد

وقد أجاب الزمخشري عن ذلك في كشافه ٩٦/١ فقال: هو استقصار منه لنفسه واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين ،هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله .أ.هـ.

٢ - قال الزمخشري في الموضع السابق:للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جدا.أ.هـ.

٣ - آخر الآية ٢٦من سورة يس.

٤ - البرهان ٤٤٥/٤ بتصرف .

٥ - الإتقان٢٥٩/٦ بتصرف .

٦ - أول الآية ٢٩ من سورة يوسف .

وقول الداعي (رب اغفر لي) أي يا رب.. ويهتف الداعي (يا الله)،(يا أيها)،(يا أيتها)، وهكذا.

• وأما(أي) – بفتح الهمزة وتشديد الياء – فمنادى مبني على الضم في محل نصب ،تأتي وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام –أل– (نحو (يا أيها الناس ،يا أيها النبي ... ، يا أيها الذين..) الخ لأن حرف النداء (ياء) لا يدخل على ما فيه (أل)– في غير لفظ الجلالة(الله) إلا شاذاً.

• وقد تأتي (أي) موصولة ،كقوله تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [1] ، كما تأتي استفهامية يسأل بها عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما ،كقوله تعالى ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ [2]، وقوله تعالى ﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾ [3] ،وقد تأتي شرطية ، كقوله تعالى ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ﴾ [4].

• (وأي) اسم مبهم ،مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه ،ويزول إبهامه بالاسم المقصود بالنداء الذي يأتي بعده،فلابد أن يردفه اسم جنس – أو ما يجري مجراه – يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء.[5]

• وأما (ها) فحرف دال على التنبيه ،مبني على السكون ،لا محل له من الإعراب ، مقحم[6] بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة[7] حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه ،

١– آخر الآية٦٩ من سورة مريم .

٢ – من الآية ١٢٤ من سورة التوبة.

٣ – من الآية ٧٣من سورة مريم.

٤ – من الآية ٢٨ من سورة القصص، ويراجع : الإتقان ١٨٠/٢،١٨١.

٥ – الكشاف ٩٦/١ بتصرف .

٦ – يعني زائد ، يقال لفظة مقحمة :زائدة لا تناسب السياق .المعجم الوجيز /٤٩١ .

٧ – المعاضدة : المعاونة ، واعتضدت بفلان أي استعنت به ، الصحاح ٤٣٢/١ مادة عضد.

ووقعها عوضاً عما تستحقه (أي) من الإضافة .[1]

(الذين آمنوا).

(الذين) في موضع رفع نعت لـ (أي) ،وجمله (آمنوا) صلة الموصول – الذين– لا محل لها من الإعراب .

قوله تعالى (لا تقدموا).

(لا) حرف نهي ،مبني على السكون لا محل له من الإعراب .

و (تقدموا) فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية ،وعلامة جزمه حذف حرف النون، وواو الجماعة – في (تقدموا) فاعل مبني على السكون في محل رفع.

وحقيقة التقدم : المشي قبل الغير ، وفعله المجرد (قدم) ، من باب نصر، ومنه قوله تعالى ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [2] .

وهذا الفعل – تقدم– يحتمل أن يكون متعدياً حذف مفعوله ، كما يحتمل أن يكون لازما ليس له مفعول ، وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فمن قائل انه متعد ، ومن قائل إنه لازم ، ولكل حجته المقبولة.

أما **القول الأول** : فجوز أن يكون هذا الفعل من(قدم) المتعدي ، حذف مفعوله ،وفيه وجهان :–

أحدهما: أن المفعول قد حذف للقصد إلى تعميمه ، ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل ، والمعنى : لا تقدموا أي أمر من الأمور .

الثاني: أن المفعول ترك للقصد إلى نفس الفعل ، من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور ، لأن المقصود نفي التقديم رأسا ، ويكون المتعدي في هذه الحالة بمنزلة اللازم ،على طريقة قولهم : فلان يعطي ويمنع ، أي يفعل الإعطاء والمنع ، ولا يراد بهما إعطاء شيء معين ولا منع شيء

١– الكشاف ٩٦/١ بتصرف .

٢ – أول الآية ٩٨ من سورة هود ،وينظر : التحرير والتنوير ٢١٥/٢٦.

معين ، وإنما يراد بهما أن له إعطاء ومنعا،

كقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [1] .

والمعنى على ذلك :لا تفعلوا التقديم ولا تتلبسوا به ولا تجعلوه منكم بسبيل

• ورجح الأول بأنه أكثر استعمالا ،فضلا عن الحكم الكثيرة المصاحبة لذلك من الإيجاز والفائدة التامة للعموم ، واستعماله على أعرف اللغتين فيه، مع المطابقة لما نزل في شأنه .[2]

وقيل إن الثاني أوفى بحق المقام لإفادته النهي عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية،المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهاني .[3]

• ومن الواضح أن لكل حجة مقبولة ومعقولة،مما جعل الألوسي يقول(وبعضهم لم يفرق بينهما لتعارض الترجيح عنده ،وكون مآل المعني عليهما العموم المناسب للمقام)[4].

– وأما القول الثاني :فجوز أصحابه أن يكون الفعل من (قدم) اللازم ،بمعنى (تقدم) كوجه بمعنى توجه ، وبين بمعنى تبين ، ومنه: (مقدمة الجيش) للجماعة المتقدمة منه ،وكذا (مقدمة الكتاب)، ويؤيده قراءة يعقوب (لا تقدموا) ، على أن أصل الفعل (تتقدموا) .

وعليه فليس لهذا الفعل مفعول أصلاً.

وقد رجح الزمخشري القول الأول قائلا :إلا أن الأول [5] أملأ

١ – أول الآية ٦٨ من سورة غافر.

٢ – حاشية الشهاب ٥٤٣/٨.

٣ – تفسير أبي السعود٦٠٧/٥.

٤– روح المعاني ١٩٩/٢٦.

٥– يعنى القول بتعدي الفعل مع عدم ذكر المفعول .

بالحسن وأرجه، وأشد ملائمة لبلاغة القرآن ، والعلماء له أقبل) أهـ.[1]

قوله تعالى (بين يدي الله ورسوله).

(بين) ظرف مكان منصوب بالفتحة الظاهرة ،وهو مضاف و (يدي) مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى،و(يدي) مضاف ولفظ الجلالة (الله) مضاف إليه مجرور بالكسرة الظاهرة والواو حرف عطف ،و(رسوله) معطوف على لفظ الجلالة – (الله) – مجرور بالكسرة الظاهرة والهاء ضمير مبني على الكسر في محل الجر، ومرجعه إلى لفظ الجلالة .

وأصل عبارة (بين يدي) لبيان المكان الذي يكون أمام الشخص محصوراً بين جهتي يمينه وشماله ،فحقيقة قولهم : (جلست بين يدي فلان). أن تجلس بين العضوين ،فتجوز بذلك عن الجهتين المقابلتين ليمينه وشماله قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما توسعاً، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره ، فهو من المجاز المرسل ، وقد يتوسع في هذه العبارة لتشمل الأمور المعنوية أو الزمانية ، ومنه (بين يدي الساعة) .

وقد جرت هذه العبارة هنا على سنن من المجاز ،وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا ،ففي هذه الآية استعارة تمثيلية ، حيث شبه تعجل الصحابة في إقدامهم على قطع الحكم في أمر من الأمور – بغير إذن الله ورسوله– بحالة من يتقدم متبوعه في مشيه ويتركه خلفه ،كتقدم الخادم بين يدي سيده في سيره ،فإنه في العادة مستهجن [2] .

ووجه الشبه في كل :الإنفراد في الطريق .

ولهذا التمثيل فائدة جليلة وهي : تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه

١– الكشاف ٣٤٠/٤.

٢– أي مستقبح ،والهجنة هي القباحة ،وتهجين الأمر: تقبيحه، أفاده الصحاح ١٦١٩/٢ مادة هجن.

من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .[1]

ومثله قوله تعالى في حق الملائكة (لا يسبقونه بالقول)[2].

فأصله :لا يسبق قولهم قوله ،فمدحهم بنفي السبق، تنبيها على استهجان السبق المعرض به للقائلين على الله ما لم يقله.[3]

• وقد يكون المراد :(بين يدي رسول الله) وذكر لفظ الجلالة تعظيماً للرسول ﷺ ،وإشعارا بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله .

وعلى هذا فلا استعارة[4].

وسيأتي – إن شاء الله- توضيحه في المباحث التفسيرية .

• قوله تعالى(واتقوا الله).

• الواو عاطفة على (لا تقدموا) و(اتقوا) فعل أمر مبني على حذف حرف النون ، وواو الجماعة فاعل ، ولفظ الجلالة – (الله)– مفعول به. وفعل الأمر هذا – اتقوا- على صورة الافتعال ، أصل فائه الواو لا التاء .

قال الجوهري : اتقى يتقي أصله أوتقي ،على افتعل ، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ،وأبدلت منها التاء وأدغمت ،فلما كثر استعماله على لفظ الافتعال توهموا أن التاء من نفس الحرف فجعلوه: اتقى يتقي بفتح التاء فيهما مخففة ، أ.هـ .[5]

وهو مأخوذ من الوقاية ،وهي الصيانة ،قال ابن منظور :وقيت الشيء أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى ،ووقاه : صانه، والاسم :

---

١ – هذا محصل ما في الكشاف ٣٤١/٤، تفسير النسفى ١٦٥/٤ ، حاشية الشهاب ٥٤٤/٨، روح المعاني ٢٦ /١٩٩،حاشية الجمل ١٧٣/٤، حاشية الصاوي ٩٠/٤.

٢– أول الآية ٢٧ من سورة الأنبياء.

٣ – حاشيتا الجمل و الصاوي في الموضعين السابقين .

٤ –١لمرجعان السابقان

٥ – الصحاح ١٨٣٠/٢ مادة وقى .

التقوى ، التاء بدل من الواو ،والواو بدل من الياء ،أ.هـ.[1]

وقال الراغب : الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ،يقال : وقيت الشيء أقيه وقايةً ووقاء، والتقوى :جعل النفس في وقاية مما يخاف،أ.هـ[2]

• قوله تعالى (إن الله سميع عليم).

(إن) حرف توكيد ونصب ،مبني على الفتح لا محل له من الإعراب ولفظ الجلالة (الله) اسم (إن) منصوب بالفتحة الظاهرة و (سميع) خبرها ، مرفوع بالضمة الظاهرة و(عليم) صفة أو خبر ثان بعد الخبر الأول ، مرفوع بالضمة الظاهرة ، والجملة – إن الله سميع عليم– في موضع العلة للنهي عن التقدم وللأمر بالتقوى .

والله أعلم

(المباحث التفسيرية)

افتتح الحق سبحانه وتعالى هذه السورة الكريمة بنداء الفئة المؤمنة بوصف الإيمان، ذلك الوصف المحبب إلى القلوب والنفوس ، فليس أحب إلى الإنسان من أن يكون مؤمناً ، ولا أرفع شأناً ولا أعلى قدراً من أن يوصف بالإيمان .

• وإن المتتبع لافتتاحيات السور القرآنية ليلحظ أن سورة الحجرات هذه هي إحدى السور الثلاث– التي لا رابع لهن– مما افتتحها الله تعالى بقوله (يا أيها الذين آمنوا)

الأولى : سورة المائدة بـ (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) .

والثانية : هذه السورة بـ (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله)

والثالثة: سورة الممتحنة بـ (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء).

---

١ – لسان العرب ٤٠١/١٥ مادة وقى .

٢ – المفردات في غريب القرآن /٥٣٠ مادة وقى.

• وكذلك المتتبع للنداءات الإلهية في القرآن الكريم يجد أكثرها موجهاً إلى جماعه المؤمنين ، فقد بلغت نداءاتهم تسعة وثمانين نداء تقريباً.

كما يلحظ أيضا أنه لم يقع نداء واحد منها في آية مكية ، وإنما وقعت كلها في الآيات التي نزلت بعد الهجرة . بعد أن تكونت الجماعة المسلمة وأصبح لها الكيان الخاص والقوة الخاصة والسبيل الخاص الذي يبث روح التميز لهذه الجماعة عن غيرها .

• ناداهم الله تعالى بهذا الوصف الذي تركز في نفوسهم ، تنبيها إلى أن الإيمان من شأنه أن يحملهم على الاستجابة لما طلب منهم وكلفوا به وتنبيها إلى أنهم بحكم اشتراكهم في ذلك الإيمان مسئولون عن هذه التكاليف التي هي من أحكام الإيمان ، يسأل الشخص المؤمن عن نفسه ويسأل عن أخيه ، وهذا هو الأصل فيما يقرره الإسلام من تضامن أهله ومسئولية بعضهم عن بعض في تنفيذ الأحكام والعمل بمقتضاها .

• وإن القارئ لسورة الحجرات خاصة يلحظ أنها قد اشتملت على خمسة نداءات إلهية لجماعة المؤمنين ، خاطبهم الحق سبحانه وتعالى فيها بأمر أو نهي .

هذه النداءات الخمس هي (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ، (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)،(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) ، (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن).

وهنا يثور في النفس سؤال مؤداه : ما سر تصدير الخطاب بالنداء ، ولماذا كثر النداء في القرآن الكريم بهذه الطريقة ، وما هي فوائد إعادة النداء وسر تكريره لمنادٍ واحد ؟

• أجاب أبو السعود عن الجزئية الأولى فقال:

تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه ، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ،ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ، ووازع عن الإخلال به ، أ.هـ.[1]

• وأما الجزئية الثانية – وهي استقلال القرآن الكريم بهذه الطريقة في النداء– فإن ذلك يرجع إلى عده أمور، كان الزمخشري صاحب التنويه إليها حيث قال:

فإن قلتَ : لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره ؟

قلتُ : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة ، لأن كل ما نادي الله له عباده– من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره ، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ، أ.هـ.[2].

• وأما ما يتعلق بالجزئية الثالثة – أعني فوائد النداء – فأقول :

إن في إعادة النداء مع قرب العهد به فوائد جليلة منها :–

١– أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد ،كما في قول لقمان لابنه وهو يعظه: (يا بني لا تشرك بالله ..يا بني إنها إن تك مثقال حبة...يا بني أقم الصلاة ..)[3] ، وكما في قول إبراهيم – عليه السلام– لأبيه (يا أبت لم تعبد مالا

١– تفسير أبي السعود ٦٠٧/٥.

٢– الكشاف ٩٦/١.

٣– راجع الآيات ١٣: ١٩ من سورة لقمان .

يسمع ولا يبصر ....يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ....يا أبت لا تعبد الشيطان ...يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن.)[1].

٢- أن لا يتوهم أن المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا، فإن من الجائز أن يقول القائل :يا زيد افعل كذا ، و قل كذا يا عمرو ، فإذا أعاده مرة أخرى وقال : يا زيد افعل كذا. وقل كذا يعلم أن المخاطب أولا هو المخاطب ثانيا

٣- أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود لذاته ، وليس الثاني تأكيدا للأول ، كقولك : يا زيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق ، فإنه لا يحسن أن تقول : يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم ،كما يحسن عند اختلاف المطلوبين ٤- المبالغة في الإيقاظ والتنبيه ، فإن النداء تنبيه للمنادي، ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه، فإعادته تفيد تجدد ذلك .[2] والله أعلم..

• وبعد أن نبه الله تعالى في جماعة المؤمنين شعور الإيمان بهذا الوصف الذي يقتضي المسارعة إلى امتثال الأمر أو اجتناب النهي الملقى إليهم ينبغي أن تتحول معه الجماعة المؤمنة إلى آذان صاغية وقلوب واعية ونفوس صافية تنتظر ما يلقى إليها من خالقها سبحانه وتعالى وما يوجهها به.

فما هي توجيهاته جل وعلا لعباده المؤمنين وماذا يطلب منهم ؟

إن أول هذه التوجيهات جاء متمثلاً في المنهي عنه .

فقال تعالى (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله).

ولقد اختلفت أقوال العلماء في بيان المعنى المراد من هذا النهي وهي

١- راجع الآيات ٤٢:٤٥ من سورة مريم .

٢- التفسير الكبير ٢٨/٩٧، الفتوحات الإلهية ٤/١٧٤/١٧٥، روح المعاني ٢٦/٢٠٣ بتصرف.

كلها أقوال صحيحة وليست بمتناقضة ، بل يقوى بعضها بعضاً وتدخل كلها تحت العموم ، من هذه الأقوال:

١- ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما : (لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة).

٢- وعنه أيضا (نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ).

٣- وقال مجاهد (لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه).

٤- وقال الضحاك (لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم).

٥- وقال سفيان الثوري (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل).

٦- وعن جابر – رضي الله عنه – أنه في الذبح يوم الأضحى ، أي لا تذبحوا قبل أن يذبح النبي ﷺ.

٧- وعن عائشة – رضي الله عنها – أنه في النهي عن صوم يوم الشك أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وروى عن جابر مثله.

٨- وقال ابن زيد :لا تقطعوا الأمر دون الله ورسوله .

٩- وقال الحسن البصري:لا تدعوا قبل الإمام.[1]

١٠- وقال ابن جريج :لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ[2].

١١- وقال البيضاوي : (لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به)[3]

١٢- وقال الراغب: معناه :لا تتقدموه ،وتحقيقه :لا تسبقوه بالقول والحكم بل افعلوا ما يرسمه لكم كما

---

١ - ينظر:جامع البيان ٢٦ / ١١٦ ، ١١٧ تفسير ابن كثير ٤/٢٠٧ الدر المنثور ٧/ ٥٤٦ ،
الكشاف ٤/٣٤١ ،٣٤٢ ، الفتوحات الإلهية ٤/١٧٣

٢- تفسير القرطبي ١٦/١٩٩

٣- أنوار التنزيل ٢/٣٢٣

يفعله العباد المكرمون – وهم الملائكة – حيث قال(لا يسبقونه بالقول) [1].

وخلاصة المعنى على هذه الوجوه: النهي عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله وسنه رسوله ﷺوهو معنى قوله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .[2]

قال الفخر الرازي : والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل ، ومنع مطلق يدخل فيه كل افتيات وتقدم واستبداد بالأمر ،وإقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة ،أ.هـ.[3]

• وجوز أن يكون المراد (بين يدي رسول الله).

فقد ذكر المفسرون رأياً مؤداه: أن المنهي عنه هو التقدم بين يدي رسول الله ﷺ

فيكون المراد: يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي رسول الله ، وذكر لفظ الجلالة – الله – تعظيماً للرسول ﷺ وإشعاراً بأنه ﷺ من الله بمكان يوجب إجلاله .[4]

وفائدة هذا الأسلوب : الدلالة على قوة الاختصاص ، وهو من باب قولك : أعجبني زيد وكرمه،في موضع : أعجبني كرم زيد . للدلالة على قوة اختصاص الكرم بزيد ، وكذا قولك : سرني زيد وحسن حاله أي سرني حسن حال زيد .

فكذلك المعني في الآية الكريمة ، كأنه قيل : لا تقدموا بين يدي رسول الله ﷺ وهو– كما قال المدقق في

١– أول الآية ٢٧ من سورة الأنبياء ، وينظر :المفردات /٣٩٧مادة قدم

٢– آخر الآية ٧من سورة الحشر

٣ – التفسير الكبير ٢٨/٩٥.

٤ – ينظر : أنوار التنزيل ٢/٣٢٣، تفسير أبي السعود ٥/٦٠٧ ،حاشية الصاوي ٤/٩٠ ، الفتوحات الإلهية ٤/١٧٤.

الكشف – [1] أوفق لما يجيء بعده فإن الكلام مسوق لإجلاله ﷺ.[2]

فيكون في هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ ، لأن من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي ، كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ، و يخافت لديه بالكلام .[3]

وعلى المعنى الأول– أعنى إرادة لفظ الجلالة–يكون قوله تعالى (بين يدي الله) من الآيات المتشابهات [4] ،

حيث إن فيها نسبة اليدين إلى الله تعالى ، ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام أن نسبة اليدين إلى الله عز وجل ليست مما عُرِف من الأعضاء و الجوارح ، فالله عز وجل له المثل الأعلى والصفات العليا و الأسماء الحسنى سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [5] ، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [6].

وللعلماء في المتشابهات – من الآيات و الأحاديث – كلام .

فقد اختلف أهل العلم في فهم النصوص المتشابهة إلى مذهبين :

مذهب السلف ومذهب الخلف.

---

١ – للمدقق عمر بن الرحمن الفارسي حاشية عظيمة على تفسير الكشاف للزمخشرى ، سماه: كشف الكشاف ، وهى المشهورة بين المفسرين بالكشف.

٢ – حاشية الشهاب ٨/٥٤٤.

٣ – الكشاف ٤/٣٤١.

٤ – النصوص المتشابهة هي الألفاظ التي يُوهم ظاهرها التشبيه بين الله تعالى وخلقه ، كالآيات التي تثبت لله اليد والقدم و الوجه والعين والمجيء والاستواء وأنه في جهة ، والأحاديث النبوية في هذا الشأن كلفظ :ينزل ربنا ....،جاع ....،مرض ....،أصابع الرحمن ..ويضع رب العزة فيها قدمه ..... إلى غير ذلك من الألفاظ الموهمة للتشبيه .

٥ – آخر الآية ١١ من سورة الشورى .

٦ – الآية ١٠٣ من سورة الأنعام

أما السلف – ومَنْ نَحَا نحوهم – فيلزمون أنفسهم بظاهر اللفظ قرآناً أو سنة ، يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه ، ويؤمنون به كما ورد بلا كيف ، ويفوضون الأمر إلى الله تعالى ، ليس لهم طريق إلى التأويل أو التشبيه أو التعطيل ، فكل ما خطر ببالهم فالله تعالى بخلافه ،لا دخل للعقل في مراده تعالى ، بل الله تعالى وحده أعلم بمراده.

فيقولون مثلا : لله يد لكنها ليست كالأيدي ، إنما يده صفة له بلا كيف وله عين لا كالأعين ....وهكذا.

لذلك حينما سئل الإمام مالك – رحمه الله – عن معنى الاستواء في قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [1].

قال كلمته المشهورة : الاستواء معلوم[2]،والكيف مجهول [3] والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعه ، ثم قال للسائل : ما أراك إلا ضالاً أو مبتدعاً،ثم أمر بإخراجه من المسجد[4].

• وأما الخلف فإنهم مع إيمانهم الجازم بان الله تعالى لا يماثل شيئاً ولا يماثله شيء ، فهو سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وأن كل ما خطر ببال الإنسان فالله تعالى بخلافه . إلا إنهم يذهبون إلى التأويل الذي يعني : صرف اللفظ عن معناه الحقيقي الظاهر إلى معنى آخر مجازى ، لقرينة تقتضى هذا الصرف .

فتراهم يلجأون إلى تأويل اللفظ المتشابه ،فيخرجونه عن ظاهره إلى معنى آخر ، تنزيهاً لله تعالى ، وفراراً من مشابهته تعالى للحوادث .

فيؤولون – مثلا – اليد بالقدرة أو بالنعمة ، والوجه بالذات أو بالرحمة والعين بالإحاطة أو بالرعاية .....وما شابه ذلك .

---

١ – الآية ٥ من سورة طه.

٢ – يعنى من حيث اللغة .

٣ – يعنى لا تعرف حقيقته .

٤ – تفسير البغوى ٣/ ٢٣٦ .

فيصرفون لفظ اليد – مثلاً – عن معناه الحقيقي الظاهر – وهو العضو الجارح – إلى معنى مجازى مرجوح – وهو المؤول عندهم بالقدرة أو النعمة – لدليل يقتضى هذا الصرف – وهو عدم مشابهة الله تعالى لخلقه أو للحوادث – .

• ومما تجدر إليه الإشارة أن الذي دعا الخلف إلى التأويل إنما هو حرصهم على تنزيه الله سبحانه وتعالى أن يكون له يد أو قدم أو وجه أو أن يكون استواؤه على العرش كاستواء خلقه .

فالمحصلة من المذهبين أنه لا تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم .لا عند السلف ولا عند الخلف، فاعتقاد أيّ من المذهبين صحيح إن شاء الله وإن كان رأى السلف في ذلك أحوط ، فرأى الخلف – من وجهة نظري – أحكم .

والله أعلم .

ويرحم الله مَن جمع بين المذهبين في قوله :

وإن بلفظ يوهم التشبيها
أوله أو فوِض ورُمْ تنزيها

فقوله : (أوله) إشارة إلى مذهب الخلف الذين يقولون بالتأويل لقصد التنزيه .

وقوله : (أو فوض) إشارة إلى مذهب السلف الذين ينكرون التأويل ويفوضون الأمر فيه إلى الله تعالى تنزيهاً لذاته المقدسة ،

والملاحظ : جواز الأمرين .[1]

قوله تعالى (واتقوا الله) .

سبق في المباحث العربية أن التقوى مأخوذة من الوقاية ، والوقاية

---

١ – ومن الناس مَن يقول بتشبيه الله بخلقه .وهم المشبهة الذين يثبتون لله تعالى الأعضاء والجوارح كما هي لخلقه ، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً . وهؤلاء يمكن التعرف على مذهبهم في كتب الملل و النحل ، وهذا مذهب فاسد ،ذكرته لبيان بطلانه ، وللتنبيه على فساد عقيدة أصحابه ، والله أعلم ...

لغة الصيانة ، وشرعا :- صيانة المرء نفسه عمَّا يضر في الآخرة .[1]

و المتقى – في الشريعة – هو الذي يقي نفسه أن يتعاطى ما توعد عليه بعقوبة من فعل أو ترك.[2]

فالمقصود بالتقوى :جعل النفس في وقاية مما يُخاف .[3]

ومعنى تقوى العبدُ لربه : أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره – من غضب الله وسخطه وعقابه – وقاية تقيه من ذلك ، بفعل الطاعات وترك المعاصي و المنكرات .

• ولَّما كانت الأضرار متعددة الجوانب ، والأوزار متفاوتة الدركات . تعددت مراتب التقوى ودرجاتها بحسب مراتب الأضرار و الأوزار .

فأولى هذه المراتب :- اجتناب الشرك ،لأنه الذي لا يُغفر أبداً ، وصدق الله العظيم القائل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[4]

وبتوقي الشرك يقي الإنسان نفسه من العذاب المُخلَّد ، وعليه يُحمل قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى)[5] ، أي كلمة التوحيد .

المرتبة الثانية :- اجتناب الكبائر ، ويدخل فيها عدم الإصرار على الصغائر .لأنها طريق الوقوع في الكبائر ، ولأن الصغيرة تصبح كبيرة بالإصرار عليها ، وكما هو معروف أنه (لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار)، ولعل هذا هو المعنى المشار إليه في قوله تعالى

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.[6]

---

١ – روح المعاني ١/١٧٩.

٢ – البحر المحيط ١/ ٦١.

٣ – المفردات / ٥٣٠ مادة وقى .

٤ – الآية ٤٨ من سورة النساء .

٥ – من الآية ٢٦ من سورة الفتح .

٦ – الآية ٦٥ من سورة المائدة .

المرتبة الثالثة :- اجتناب الصغائر وترك كل ما فيه لوم .

وهذه مسألة خلافية .

فقد اختلف أهل العلم في أنه هل يدخل اجتناب الصغائر في التقوى أم لا ؟

أو بلفظ آخر : هل التقوى تتناول اجتناب الصغائر أم لا ؟

فقال بعضهم : اجتناب الصغائر يدخل في التقوى ، كما يدخل ارتكابها في الوعيد .

وقال آخرون :لا يدخل .

• ولا نزاع في وجوب التوبة على الكل ،إنما النزاع في أنه إذا لم يتوق الصغائر هل يستحق هذا الاسم (التقوى).[1]

المرتبة الرابعة :- ترك مالا بأس به خوفاً مما به بأس ، وهو المشار إليه بحديث النبي ﷺ

(لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به البأس).[2]

وفى هذه المرتبة وردت عبارات الأكابر رضوان الله عليهم أجمعين .

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : تمام التقوى أن يتقى الله العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما ، يكون حجاباً بينه وبين الحرام .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .[1]

---

١ – راجع : التفسير الكبير٢/٢٠ ، حاشية الشهاب ١/ ٣٠٦.

٢ – أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ،باب رقم ١٩ ،حيث رقم ٢٤٥٩ ، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد ،باب الورع والتقوى،برقم ٤٢١٥ ،وأخرجه الحاكم في كتاب الرقاق ،برقم ٥٨٩٩ . كلهم من حديث عطية السعدي ،وكان من أصحاب النبي ﷺ،وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص وقال الترمذي :هذا حديث حسن غريب ،لا نعرفه إلا من هذا الوجه .
المستدرك ٤ / ٣٥٥ ، سنن الترمذي ٤ / ٢٠٥ ، سنن ابن ماجة ٢ / ١٤٠٩ .

وقيل : دع بينك وبين الحرام جزأ من الحلال ،لأنك إن استوفيت الحلال كله تاقت نفسك إلى الحرام .

وهذه المراتب الأربعة روعي فيها خطر المُتقى منه، أعنى المتروك لضرره.

وهناك تقسيم آخر روعي فيه رتبة المتقى ، من حيث الارتقاء الوقائي

ومراتب التقوى من هذه الحيثية ثلاثة :-

الأولى :- تقوى العوام ، وتكون باجتناب الشرك .

الثانية :- تقوى الخواص ، وتكون بامتثال الأوامر واجتناب النواهي .

الثالثة :- تقوى خواص الخواص ،وتكون باتقاء كل ما يشغل عن الله تبارك وتعالى .

ولعل هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [2].

• ثم إن القاري لكتاب الله تعالى ، المتدبر لمعانيه يلحظ أن كلمة التقوى وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بمعان مختلفة ، من هذه المعاني :

١. الخشية :

وعلى هذا المعنى أكثر استعمالات الكلمة في القرآن الكريم يقول تعالى (يأيها الناس اتقوا ربكم) [3] ، يعنى اخشوه. ويقول تعالى (إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) [4] ، يعنى ألا تخشون الله ، وكذلك قال هود وصالح ولوط وشعيب لقومهم ، ويقول تعالى (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) [5] يعنى واخشوه ، ويقول تعالى (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله..) [6] ، يعنى : اخشوا هذا اليوم ، والأمثلة

١ – الدر المنثور ٦١/١.

٢ – أول الآية ١٠٢ من سورة آ ل عمران .

٣ – أول سورة النساء و الحج .

٤ – الآية ١٠٦ من سورة الشعراء .

٥ – أول الآية ١٦ من سورة العنكبوت .

٦ – أول الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

على هذا المعنى من القرآن الكريم كثيرة جداً .

٢. الإيمان :

ومنه قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) [1] .أي كلمة التوحيد ، وقوله تعالى (قوم فرعون ألا يتقون) [2] ، يعنى ألا يؤمنون .

٣. التوبة :

ومنه قوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) [3] أي وتابوا .

٤. الطاعة :

ومنه قوله تعالى (أفغير الله تتقون) [4] ، وقوله تعالى (وأنا ربكم فاتقون) [5] ، يعنى فأطيعون .

٥. ترك المعصية:

كقوله تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله) [6] . يعنى فلا تعصوه .

٦. الإخلاص :

ومنه قوله تعالى (فإنها من تقوى القلوب) [7] أي من إخلاصها .

واعلم أخي الكريم أن مقام التقوى مقام شريف ، قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون) [8] ، وقال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . [9]

والتقوى وصية الله للأولين و الآخرين ،قال تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله). [10]

وفيها جماع الخير ، وهي أفضل ما يستفيده الإنسان كما قال أبوالدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشعر، وأنت ما حفظ عنك

١ – من الآية ٢٦ من سورة الفتح .

٢ – الآية ١١ من سورة الشعراء .

٣ – أول الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

٤ – آخر الآية ٥٢ من سورة النحل .

٥ – آخر الآية ٥٢ من سورة المؤمنون .

٦ – من الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

٧ – آخر الآية ٣٢ من سورة الحج .

٨– آخر سورة النحل.

٩– من الآية ١٣ من سورة الحجرات ، وينظر : التفسير الكبير٢٠/٢.

١٠ – من الآية ١٣١ من سورة النساء .

شيء ، فقال وأنا قلت فاستمعوه ثم أنشد:

يريد المرء أن يؤتي مناه
ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي
وتقوى الله أفضل ما استفادا .[1]

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال : (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة ...الحديث.[2]

ولما كانت هممم المتقين متفاوتة . فقد اختلفت عبارات الأكابر في تعريف التقوى .

فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه– أنه قال:

التقوى هي : الخوف من الجليل ، والرضا بالقليل ، والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل.

وعنه أيضا أنه قال :التقوى :ترك الإصرار على المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة.

وقال الحسن:التقوى :أن لا تختار على الله سوى الله ،وتعلم أن الأمور كلها بيد الله .

وقال إبراهيم بن أدهم :التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيبا ، ولا الملائكة في أفعالك عيبا، ولا ملك العرش في سرك عيبا.

وقال الواقدي: التقوى أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق.

وقال أبو يزيد البسطامي : المتقي:من إذا قال قال لله ومن إذا عمل عمل لله.

---

١ – تفسير القرطبي ١١٤/١ ، تفسير ابن كثير ٣٩/١ الدر المنثور ٦١/١

٢– أخرجه ابن ماجة في كتاب النكاح ،باب أفضل النساء ، برقم١٨٥٧ ، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، سنن ابن ماجه٥٩٦/١. وقال محمد فؤاد عبد الباقي معلقاً على هذا الحديث : في الزوائد في إسناده علي بن زيد ، قال البخاري : منكر الحديث ، وعثمان بن أبي العاتكة مختلف فيه ، والحديث رواه النسائي من حديث أبي هريرة وسكت عنه ، وله شاهد من حديث ابن عمر .

وقال أبو سليمان الداراني :المتقون : الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات.

وقيل لطلق بن حبيب : ألا تجمع لنا التقوى في كلام يسير ، قال : التقوى : العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله ،والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله.

وعن وهب بن كيسان قال: كتب رجل إلى عبد الله بن الزبير بموعظة أما بعد فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم

من صبر على البلاء ، ورضي بالقضاء ، وشكر النعماء ، وذل لحكم القرآن .

وعن ابن المبارك قال: قال داود لابنه سليمان – عليهما السلام– :

يا بني إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء : لحسن توكله على الله فيما نابه ، ولحسن رضاه فيما أتاه ، ولحسن زهده فيما فاته.

وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [1] أنه قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر .

وقيل : التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك .

وقيل : المتقي من سلك سبيل المصطفى ،ونبذ الدنيا وراء القفا ، وكلف نفسه الإخلاص والوفا، واجتنب الحرام والجفا.

وقيل : التقوى هي التبرؤ عن الحول والقوة .

وقيل :التقوى هي التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق.

ومن أجمل وأجمع ما ورد في ذلك أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب

١– من الآية ١٠٢ من سورة آل عمران

– رضي الله عنهما– عن التقوى ،فقال له:هل أخذت طريقا ذا شوك ،قال نعم .قال فما عملت فيه؟ قال :تشمرت واجتهدت وحذرت .

قال فذلك التقوى .

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز ونظمه شعرا فقال :

خل الذنوب صغيرها

وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق

أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة

إن الجبال من الحصى [1]

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من عباده المتقين ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول و العمل ، في السر والعلن ،إنه على ما يشاء قدير

---

١ – ينظر : التفسير الكبير ٢٠/٢ ، تفسير القرطبي ١١٤/١ ،تفسير ابن كثير ٣٩/١، الدر المنثور ٦١/١ ، روح المعاني ١٧٩/١.

• هل الأمر بالتقوى هنا خاص أم عام ؟

الأمر بالتقوى في قوله تعالى (واتقوا الله) يصح أن يكون خاصا بالحكم المنهي عنه ، والمعنى : واتقوا الله في التقدم الذي نهيتم عنه .

كما يصح أن يكون عاما في كل تقدم ، والمعنى: واتقوا الله في كل ما تأتون وما تذرون من الأقوال والأفعال .

ولا مانع من الجمع بين الأمرين ، فيقال :إن الأمر بالتقوى عام ويدخل فيه الحكم الخاص المنهي عنه في الآية– وهو التقدم على الله ورسوله – دخولا أوليا ، وعليه يكون المعنى :اتقوا الله في كل أموركم والتي من جملتها ما نهاكم عنه ، و إلا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام ، والله أعلم.

• قوله تعالى (إن الله سميع عليم)

ما السر في وضع الظاهر موضع المضمر ؟

أظهر الحق سبحانه وتعالى لفظ الجلالة (الله) في هذا الموضع – وكان يمكن إضماره–[1] لتربية المهابة والروعة [2] في القلوب .

وقوله تعالى: (سميع عليم) صيغتا مبالغه، للدلالة على المبالغة في سمع الله تعالى وعلمه ، وهما من الأسماء الحسنى التي سمى الله بها نفسه والتي تتضمن ثلاثة أمور:

١- ثبوت ذلك الاسم لله تعالى .

٢- ثبوت الصفة التي تضمنها هذا الاسم لله تعالى .

٣- ثبوت حكم تلك الصفة ومقتضاها لله عز وجل.

---

١ – إذ كان من الممكن أن يقال (واتقوا الله إنه سميع عليم) بهاء الضمير الدالة علي لفظ الجلالة.

٢– الروعة: الفزعة، من الروع وهو الفزع.

فقوله تعالى (إن الله سميع) يتضمن إثبات السميع اسماً له تعالى ، كما تضمن إثبات صفة السمع لله تعالى ، وكذا تضمن إثبات حكم ذلك ومقتضاه ، وهو أنه تعالى لا يفوت سمعه مسموع.

وكذا قوله تعالى (عليم) تضمن إثبات العليم اسما له تعالى ، كما تضمن إثبات صفة العلم لله تعالى ، وكذا إثبات حكم ذلك ومقتضاه ، وهو أن الله تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

فسبحان من وسع سمعه الأصوات ، وأحاط بكل شيء علماً..

• وتذييل الآية بهاتين الصفتين فيه إشارة إلى عموم النهي قولاً وعملاً وقد سبق في المباحث العربية أن هذه الجملة – إن الله سميع عليم – في موضع العلة للنهي عن التقدم وللأمر

بالتقوى ، فكأن سائلاً سأل : لماذا نتقي الله تعالى ؟ فكان الجواب : لأن الله سميع عليم . وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إن الله سميع لكل مسموع ومنه أقوالكم ، عليم بكل معلوم ومنه نياتكم وأعمالكم ، فمن كان ذلك فحقه أن يتقى ويراقب . والله أعلم.

• وهناك سؤال يطرح نفسه في ختام هذه الآية ، مؤداه :

هل هذه الآية تدل على نفي القياس كما زعم البعض ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

إن هذه الآية الكريمة من الآيات التي احتج بها نفاة القياس . قالوا: قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) معناه لا تقولوا حتى يقول ، والإخبار عنه بأنه حرم ما سكت عنه أو أوجبه قياسا على ما تكلم بتحريمه أو إيجابه تقدم بين يديه ،فإنه إذا قال : حرمت عليكم الربا في البر[1] فقلنا : نحن نقيس على قولك البلوط.[2] فهذا محض التقدم .

ولا يقال : فإبطال القياس وتحريمه والنهي عنه تقدم بين يدي الله ورسوله وتحريم لما لم ينص على تحريمه ، وقفوا منكم ما ليس لكم به علم .[3]

لأنا نقول : الله سبحانه وتعالى أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً وأنزل علينا كتابه ، وأرسل إلينا رسوله يعلمنا الكتاب والحكمة ، فما علمناه وبينه لنا فهو من الدين ، وما لم يعلمناه ولا بين لنا أنه من الدين فليس من الدين ضرورة ، وكل ما

---

١ – البر: حب القمح.

٢ – البلوط : ثمر شجر يؤكل ويدبغ بقشره ، وشجره هذا غليظ الساق،كثير الخشب صلبه. يراجع : لسان العرب ٧ /٢٦٥، المعجم الوجيز/٦١مادة بلط.

٣ – من قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) الإسراء /٣٦

ليس من الدين فهو باطل ، فليس بعد الحق إلا الضلال .

هذه محصلة ما قاله نُفاة القياس في هذا الشأن

وللرد على هؤلاء نقول :

إن هذا الزعم باطل منهم ، فإن ما قامت دلالته فليس في فعله تقديم بين يدي الله ورسوله ،وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع ، فليس إذاً تقدم بين يدي الله ورسوله.[1]

ثم إن هؤلاء – نفاة القياس– قد أخطأوا من عدة أوجه منها :

أولاً:- رد القياس الصحيح، ولاسيما المنصوص على علته ، التي يجري النص عليها مجرى التنصيص على التعميم باللفظ ،ولا يتوقف عاقل في أن قوله تعالى ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾[2]. نهى عن كل رجس ، ولا يستريب أحد في أن من قال لغيره : لا تأكل من هذا الطعام فإنه مسموم، نهي له عن الأكل من كل طعام مسموم وإذا قال له : لا تشرب هذا الشراب فأنه مسكر.نهي له عن كل شراب مسكر، وإذا قال له : لا تتزوج هذه المرأة فإنها فاجرة ، نهى له عن الزواج بأي امرأة فاجرة. وأمثال ذلك كثير .

ثانياً:- تقصيرهم في فهم النصوص . فكم من حكم دل عليه النص ولم يفهموا دلالته عليه وسبب هذا الخطأ – والله أعلم– حصرهم الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ دون إيمائه وتنبيهه وإشارته وعرفه عند المخاطبين فلم يفهموا من قوله تعالى ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾[3] ضرباً ولا

---

١ – تفسير القرطبي ٢٠٠/١٦

٢– من الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

٣ – من الآية ٢٣ من سورة الإسراء

سباً ولا إهانة غير لفظة (أف). فقصروا في فهم الكتاب كما قصروا في اعتبار الميزان.[1]

نسأل الله تعالى أن يرزقنا فهم كتابه وسنة نبيه ﷺ والعمل بهما

كما نسأله عز وجل أن يبصرنا بعيوبنا وأن يغفرها لنا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

المعنى الإجمالي العام

بعث الله تعالى محمداً ﷺ إلى الناس كافة بالإسلام الحنيف ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويتمم فيهم مكارم الأخلاق ، ويهذب نفوسهم بالفضائل السامية ، ويحسن من عاداتهم السيئة ، وينظم شئون حياتهم ويصلح من غرائزهم ، ويربيهم على الكمالات البشرية بقدر المستطاع .

وكان من أهم ما عنى به الإسلام – أشد العناية– التأدب مع الله تعالى ورسوله ﷺ بل مع شريعة الإسلام عامة .

وكانت عادة العرب – وهي إلى الآن– الاشتراك في الآراء ، وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، كما كان فيهم أيضا الجفاء والغلظة والهجنة والشناعة وسوء الأدب في الخطاب وتلقيب الناس .

ولما كانت هذه السورة المباركة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب ، فقد ابتدأت بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين تجاه شريعة الله تبارك وتعالى وأمر رسوله ﷺ فقال تعالى

(يا أيها الذين آمنوا) يا من أقررتم بوحدانية الله وصدقتم بنبوة محمد ﷺ وما جاء به من الحق، يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله :

١– لمزيد من التفصيل في هذه المسألة راجع : أعلام الموقعين عن رب العالمين ،لابن القيم ١/ ١٩٧ وما بعدها ط دار الحديث بالقاهرة.

تبدأ السورة بأول نداء حبيب ، وأول استجاشة للقلوب (يا أيها الذين آمنوا) نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب ، واستجاشة لقلوبهم بالصفة التي تربطهم به وتشعرهم بأنهم له ،وأنهم يحملون شارته ، وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده وأنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم اختيارا لهم ومنة عليهم فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا،وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره،يفعل ما يؤمر ويرضى بما قسم ، ويسلم ويستسلم . (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا لا في خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله ،أ.هـ.[1]

فعلى المسلمين أن لا يبرموا أمرا أو يبدوا رأيا أو يقضوا حكما في حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيروه ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة .

وكذلك بعد وفاته ﷺ .

يقول العلامة البقاعي رحمه الله: (المعنى: لا تكونوا متقدمين في شيء من الأشياء ،والله يقول الحق ويهدي السبيل ، ورسول الله ﷺ يبلغ عنه لا ينطق عن الهوى ، فعلى الغير الإقتداء والإتباع ، لا الابتداء والابتداع سواء كان النبي ﷺ غائبا أو حاضرا ، بموت أو غيره ، فإن آثاره كعينه فمن بذل الجهد فيها هدي للأصلح ، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).[2] ا.هـ

وإنما نهى الحق سبحانه وتعالى عن التقدم ،لأن فيه خروج عن صفة المتابعة كما أن فيه استقلال بالأمر ، فيكون منافيا للإيمان.

١ – في ظلال القرآن ٣٣٣٨/٢٦

٢– أول الآية ٦٩من سورة العنكبوت ، وينظر : نظم الدرر ٢٢١/٧.

لذلك بعدما نهاهم عن التقدم أمرهم بالتقوى وأوصاهم بها فقال تعالى (واتقوا الله) أي: اجعلوا بينكم وبين غضب الله وسخطه وقاية ،وذلك بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، فإنكم أن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبه الله تجنبه ،وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل :لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار. فتناه أولا عن عين ما قارفه ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها.[1]

• وهذه التقوى المنجية التي أمرهم الله بها لا تتحقق إلا بإتباع أوامره سبحانه وتعالى واجتناب نواهيه والوقوف عند حدوده التي بينها للناس وحذرهم من تعديها .

ثم علل الحق سبحانه وتعالى ما أمر به من التقوى بقوله (إن الله سميع عليم) . يسمع ما تنطقون ويعلم ما تعملون ، ما تخفون منه وما تعلنون سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ومن كان كذلك فمن حقه أن يتقى ويراقب ، فهو سبحانه وتعالى (سميع) لأقوال عباده قبل أن يقولوها ،(عليم) بأفعالهم قبل أن يفعلوها ، خبير بصير بضمائرهم وما في قلوبهم من التقوى ، فلا ينبغي أن تختلف أقوال العباد وأفعالهم وضمائرهم.

يقول الإمام الرازي رحمه الله : (إن الله سميع عليم) يؤكد ما تقدم ، لأنهم قالوا آمنا ،لأن الخطاب يفهم بقوله: (يا أيها الذين آمنوا) ، فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما في قلوبهم من التقوى والخيانة ،فلا ينبغي أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير

١- الكشاف ٣٤٢/٤

قلبكم ،بل ينبغي أن يتم ما في سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا ، وما في علمه من فعلكم الظاهر ، وهو عدم التقدم ،وما في قلوبكم من الضمائر وهو التقوى)أ.هـ[1]

والله أعلم

فقه الآية

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة – من مطلع سورة الحجرات – سوف يلفت نظره فيها دروس وعبر كثيرة ،يجب عليه أن يتوقف عندها في محاولة لفهمها وتطبيقها والاستفادة منها في واقعنا المعاصر ، فالدروس المستفادة كالثمرة المرجوة من العمل ،فإذا لم يستفد الإنسان من علمه أو عمله شيئا كان كمن زرع زرعة ولم تثمر له ثمرة، وما أكثر الذين يزرعون بلا حصاد ، والعياذ بالله.

فما هو فقه تلك الآية ؟ وما هي الدروس المستفادة منها ؟

للإجابة عن ذلك نقول وبالله التوفيق :

إن هذه الآية في مجملها ومجالها تعطي للمسلم دروسا وعبرا كثيرة منها :-

الدرس الأول:- حتمية الإقتداء بالكتاب والسنة .

١- التفسير الكبير ٩٦/٢٨.

لقد حصل من قوله تعالى (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) معنى : اتبعوا الله ورسوله ، وهو إتباع في كل شيء .

فالآية تقرر أصلا عظيما من أصول الإسلام ،ألا وهو وجوب إتباع كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ والإقتداء بهما ، فلا دين إلا ما شرعه الله على لسان رسوله ، ولا حلال إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حرام ألا ما حرماه لا زيادة في شرع الله ولا نقصان ، لا ابتداع ولا تغيير ولا تبديل ،لا تقديم ولا تأخير ، بل الأمر كله لله تعالى والحكم حكمه .

ولعلك – أخي الكريم– تلحظ تذييل الآية بقوله تعالى (واتقوا الله إن الله سميع عليم) . وكأنها إشارة إلى أن من تمام تقوى المؤمن ألا يقدم بين يدي الله ورسوله أمرا من الأمور أيا كان – قولا أو فعلا ، عملاً أو خلقاً – لم يأت به الإسلام ، فهو وقاف عند ما أوقفه الله تعالى ورسوله ﷺ لا يتحرك خطوة إلا في طريق واضحة المعالم ،بينة المسالك ، يأمن فيها الزلل والعثار ،لأنها طريق الله وطريق رسوله وسبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين قال تعالى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (١)

• واعلم أخي الفاضل أن الإقتداء بما جاء في الكتاب والسنة ليس أمراً اختيارياً إنما هو من مقتضيات الإيمان ، فليس الإقتداء والإتباع هوى واختياراً إن شاء المؤمن فعل وإن شاء ترك ، كلا . إنما هو حتم وإلزام واجب ، وهو جزء من حقيقة الإيمان ، وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ

١ – الآية ١١٥ من سورة النساء .

وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

فلا يجوز للمسلم أبدا أن يقدم عملا ما لم يكن موافقا للكتاب والسنة ، ولا يحق للمؤمن أبدا أن يتقدم برأيه على ما جاء به الكتاب وما جاءت به السنة ، وإلا ضل وأضل ،وكان ذلك من باب التقدم بين يدي الله ورسوله ،وفي ذلك الهلاك والخسار وإحباط العمل .

ومن فقه هذا النداء كانت إجابة الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه ، حين وجهه النبي ﷺ إلى اليمن قائلا له : (كيف تقضي إذا عرض لك قضاء)؟ قال : أقضي بكتاب الله . قال: (فإن لم تجد في كتاب الله)؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ .قال :(فإن لم تجد في سنة رسول الله قال: أجتهد رأيي ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : (الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله).(٢)

والشاهد فيه أنه رضي الله عنه قد أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان ذلك من باب التقديم بين يدي الله ورسوله ،وقد نهى الله تبارك وتعالى عنه في هذه الآية الكريمة.

وبهذا الفقه تعامل الرعيل الأول ومن تبعهم مع نصوص الدين ومقتضياتها

١ – الآية ٣٦ من سورة الأحزاب

٢– أخرجه أبو داود –واللفظ له– في كتاب الأقضية ،باب اجتهاد الرأي في القضاء ، برقم ٣٥٩٢، سننه ٣٠٢/٣ ، وأخرجه الترمذي في كتاب الأحكام ، اب ما جاء في القاضي كيف يقضي، برقم ١٣٣٢ ، وقال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل ، سننه ٦٢/٣ ، وأخرجه أحمد في المسند ٢٤٢/٥ بسنده عن معاذ ، وقال المحققون : إسناده ضعيف .

• ألا ما أحوجنا – نحن المسلمين – في عصرنا الحاضر الذي بعد الناس فيه عن الدين وأصبحت الغالبية العظمى من المسلمين لا تأبه بكتاب الله تعالى ولا بسنة رسول الله ﷺ ولا تحرص عليهما ، بل وقع المسلمون فيما حذرهم منه نبيهم ﷺ حين قال مخاطبا الأمة الإسلامية :

(لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم ؟فقال ﷺ : ومن الناس إلا أولئك).[1]

وفي رواية أخرى قال ﷺ (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن؟[2]

يعني : فمن هم غير أولئك . قال القاضي عياض : الشبر والذراع والطريق ودخول الجحر تمثيل للإقتداء بهم في كل شيء مما نهي الشرع عنه وذمه .[3]

لقد أصبح المسلمون اليوم – إلا من رحم – يُقَدِّمُون قوانين البشر على وحي السماء ، بل الأدهى من ذلك و الأمَرّ أن القرآن الكريم و السنة النبوية أصبحا في قفص الاتهام ، سواء من أعداء الإسلام أو من أبناء المسلمين الذين لا يفهمون تعاليم الإسلام فهماً صحيحاً ،فأساءوا إليه بدل أن يحسنوا .

أهمل المسلمون العقيدة التي وحَّدت صفوفهم ، وأهملوا كتاب

١- أخرجه البخاري – من حديث أبي هريرة –في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ (لتتبعن سنن من قبلكم) برقم ٧٣١٩ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٣١٢/١٣

٢ – أخرجه البخاري في نفس الموضع السابق برقم ٧٣٢٠ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٣- فتح الباري ٣١٣/١٣

ربهم وسنة نبيهم ﷺ وشُغلُوا بخلافات دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان فسلّط الله عليهم مَنْ لا يخافه ولا يرحمهم ، فضاعت قوة المسلمين وقسّمت بلادهم ، وطمع فيهم من كان بالأمس يخشاهم ويعمل لهم ألف حساب، وفقَدَ الإنسان المسلم أمنه وطمأنينته ، وجاءته الضربات من عدوه ومن صديقه ،حتى أضحى المسلمون أضيع من الأيتام في مادبة اللئام ، لا وزن لهم ،يتبعون كل ناعق ،ويمشون وراء كل من يتكلم باطلاً أو حقاً ، يُقَلِّدون عدوهم تقليداً أعمى – أشبه بتقليد القردة – كل ما يأتيهم من الغرب يقلدوه من غير عقل ،دون تفريق بين حق وباطل وبين ما ينفع وما يضر ،تاركين خلف ظهورهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، مستمسكين بما لا نفع فيه ولا مصلحة ، ناسين قول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[1]

فتكالبت على المسلمين ذئاب الأرض في شتى بقاع العالم بُغْية الإجتياز عليهم ، وأصبح المسلمون اللقمة السائغة بين أنياب الذئاب من الأمم الأخرى ، وتحقق في الأمة الإسلامية وصف النبي ﷺ لهم بأنهم غثاء كغثاء السيل ، نزع الله مهابتهم من قلوب عدوهم ، وقذف في قلوبهم الوهن.

فقد أخرج أبو داود بسنده عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ، قال ﷺ: (بلْ أنتمْ يومئذ كثير، ولكنم غثاء كغثاءِ السيل وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم،وليقذفن الله في قلوبكم

---

١ – آخر الآية ١٧ من سورة الرعد .

الوهن) فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن؟ قال ﷺ:(حُبُّ الدنيا وكراهية الموت) [1] .

وهذا ما أصبح عليه حال المسلمين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

• إن الناظر إلى حال المجتمعات الإسلامية في واقعنا المعاصر ليأسف أشد الأسف ، ويحزن أشد الحزن ،لما وصل إليه الحال بالأمة الإسلامية . فمِنَ المسلمين مَنْ قطع صلته بربة وبرسوله ﷺ ، فليس له من الإسلام إلا اسمه ، وليس له من الدين إلا رسمه ، ومنهم مَنْ زَيَّنَ لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسناً ،ومنهم من غرقهم بوارق الوهم وأغرقهم شياطين الإنس والجن، فزعموا لأنفسهم كامل الفهم ، فافتاتوا على الله ورسوله ، ومنهم من يقدم هواه على ما جاء به الكتاب وما جاءت به السنة ،ومنهم مَنْ يَعْمَد إلى صريح الوحي فيؤوله بهواه ليجره إلى زعمه الباطل ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض ومَنْ فيهن ، ومنهم من يعمد إلى وحي محكم فيصرفه عن دلالته المتبادرة ، انسياقاً وراء ما يظنه مصلحة بشرية ، ولو أنه تجرد عن هوى ملكه حتى اتبعه لعلم من سرّ التشريع ما يوافق مصلحة البشر العامة ، كما أرشد إليها العليم الحكيم ، ولكنه ممن اتخذ إلهه هواه وأضله الله تعالى ، قال سبحانه ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [2]

١ – أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم .باب تداعى الأمم على الإسلام ،برقم ٤٢٩٧ ، سننه ١٠٨/٤ .وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٧٨/٥ بسنده عن ثوبان . وقال المحققون : إسناده حسن .

٢ – الآية ٢٣ من سورة الجاثية .

هؤلاء – وأمثالهم – يدخلون دخولا أوَّلِيًا وأولوياً في الخطاب بهذه الآية (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) .....الآية

• فهل أن الأوان للمسلمين أن يفيقوا من غفلتهم ،ألم يأن لهم أن ينهضوا من كبوتهم ، ويعودوا إلى التمسك بكتاب ربهم وبسنة نبيهم ﷺ يقولون بقولهما ، ويعملون بعملهما ، ويأتمرون بأمرهما وينتهون بينهما ويحتكمون بحكمهما ، ويتبعون سبيلهما .

إن المسلمين إذا فعلوا ذلك عادت لهم العزة و الكرامة وأتتهم الدنيا وهى راغمة ، ورضي الله تعالى عنهم ، ومكن لهم في الأرض واستخلفهم فيها ،وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ،وصدق الله العظيم القائل ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [1].

وهذا وعد الله تعالى ، والله عز وجل لا يخلف الميعاد .

نسأل الله العلى القدير أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

الدرس الثاني :- الحكم لله وحده ولرسوله المبلغ عنه .

تأسيساً على ما سبق يمكننا القول بأن هذه الآية يتجلى منها درس آخر وهو أن الحكم و التشريع لله تعالى وحده لا شريك له فيه ، ولرسوله ﷺ الذي يبلغ للناس شرع ربه

١ – الآية ٥٥ من سورة النور .

فقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) يقرر أصلاً عظيما من أصول الإسلام ، وجدير بنا أن نشير إلى هذا الأصل العظيم ،الذي يُعتبر دعامة أساسية من دعائم الإسلام الأصيلة ، تُشاد على هذا الأصل معاقل الإسلام ، وتبنى عليه حصونه ، هذا الأصل هو أن الحكم لله وحده – ولرسوله الذي يبلغ عنه – لا رادَّ لأمره ولا مُعقبَ لحكمه ، وهو سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، وبهذا نطق القرآن الكريم في مواضع كثيرة وبأساليب مختلفة .

فقد قرر الحق سبحانه وتعالى أن الحكم لله وحده ، حيث قال تعالى في غير موضع من القرآن (إن الحكم إلا لله)[1]، وقال تعالى (فالحكم لله العلى الكبير)[2] ، وقال تعالى (ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين)[3].

وبين القرآن الكريم أن الله عز وجل أحكم الحاكمين وأحسنهم وأخيرهم فقال تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين)[4]، وقال تعالى على لسان نوح – عليه السلام – (وأنت أحكم الحاكمين)[5]

وقال تعالى على لسان شعيب – عليه السلام – (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)[6]، وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)[7] وقال تعالى (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[8].

---

١ – من الآية ٥٧ من سورة الأنعام ، ومن الآيتين ٤٠، ٦٧ من سورة يوسف .

٢ – آخر الآية ١٢ من سورة غافر.

٣ – آخر الآية ٦٢ من سورة الأنعام.

٤ – الآية ٨– و الأخيرة – من سورة التين .

٥ – آخر الآية ٤٥ من سورة هود .

٦ – آخر الآية ٨٧ من سورة الأعراف .

٧ – آخر سورة يونس.

٨ – آخر الآية ٥٠ من سورة المائدة .

كما بين سبحانه أنه لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ،فقال تعالى (إن الله يحكم ما يريد)[1]. وقال تعالى (والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)[2].

وقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ – في غير موضع من القرآن – أن يحكم بين الناس بالعدل،وبحسب ما بَيّن الله له ورسم ، فقال تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم)[3] ، وقال تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)[4]

وقال تعالى (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط)[5]، وقال تعالى – مخاطباً داود عليه السلام – (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[6].

وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[7].

وإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز لأحد – كائناً من كان – أن يُقَدّم بين يدي الله تعالى ورسوله حكماً أو قانوناً أو نظاماً أو دستوراً يخالف ما جاء به الكتاب الكريم وما وردت به السنة النبوية المطهرة ، إذ الحكم و التشريع لله تعالى وحده ،ولرسوله ﷺ الذي يبلغ عنه وحى السماء.

وكما قلنا في الدرس السابق إن الإقتداء بالكتاب و السنة أمر حتمي وهو من مقتضيات الإيمان، نقول هنا أيضا إن التحاكم إلى شرع الله ليس

---

١ – آخر الآية ١ من سورة المائدة . .

٢ – آخر الآية ٤١ من سورة الرعد .

٣ – أول الآية ٤٩ من سورة المائدة .

٤ – أول الآية ١٠٥ من سورة النساء .

٥ – من الآية ٤٢ من سورة المائدة .

٦ – أول الآية ٢٦ من سورة ص.

٧ – أول الآية ٥٨ من سورة النساء .

أمراً اختيارياً إن شاء المؤمن فعل وإن شاء ترك ،لكنه أيضاً من مقتضيات الإيمان ومن دلائل وجوده وحقيقته ،ويقرر هذا الأصل أتم تقرير قول ربنا تبارك وتعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً) [1].

• والمتأمل في أحوال المجتمعات الإسلامية في واقعنا المعاصر يجدها قد تركت التحاكم إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ، ولجأت إلى القوانين الوضعية و الدساتير الأجنبية و النظم الغربية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة ، بل وتتعارض صراحة وضمناً مع ما جاء في قرآننا وسنة رسولنا ﷺ مع تشدق البعض بأن ما في القرآن و السنة لا يوافق الواقع المعاصر ، ولا يتلائم مع الوقت الحاضر ، ولا يتناسب اليوم مع أفراد المسلمين ،إلى آخر هذه الشُبَه التي ألقاها إليهم الشيطان فراحوا يديرونها على كل وجه ويتشدقون بها في كل مجال ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

فحكم الله تعالى ورسوله ﷺ صالح لكل زمان ومكان ،ولكل نوع من أنواع البشر ، لأنه لا يحيد عن الحق ،ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنآن.

ولكن – وللأسف الشديد – هناك فريق من المسلمين لا يريد الحق ، ولا يطيق العدل ،فتراه دائماً يأبى التحاكم إلى شرع الله ،ويلجأ إلى النظم الوضعية التي ما أنزل الله بها من سلطان ،فيحتكم إلى ما سوى الكتاب والسنة ، ناسياً – أو متناسياً – ما قال الله تعالى وما قال رسوله ﷺ، لاسيما إذا كان الحق عليه ،فإذا كان الحق له أسرع يدعو خصمه إلى الاحتكام إلى شرع الله تعالى ، لأنه يثق في أخذ حقه بمقتضى شريعة الله

١ – الآية ٦٥ من سورة النساء .

تعالى التي لا تظلم الناس شيئاً ،ولا تبخسهم حقوقهم ،وفي هؤلاء وأمثالهم يقول الحق تبارك وتعالى﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [1].

وللأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات من ظلاله كلام طيب ، ما أحب أن يفوتني ذكره في هذا المقام ، لما فيه من عموم الفائدة ، قال رحمه الله :

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان ثم يسلك هذا السلوك الملتوي ، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان ،المنافقين الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام ولكنهم لا يرضون أن تقضى بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه ، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير (وما أولئك بالمؤمنين) ، فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله ، إلا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحاكموا إلى شريعة الله أو يحكموا قانونه .

إن الرضي بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق ،وهو المظهر الذي

١ – الآيات ٤٧:٥٢ من سورة النور .

ينبئ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ،وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله ، وما يرفض حكم الله وحكم رسول إلا سيء الأدب معتم ،لم يتأدب بأدب الإسلام ،ولم يشرق قلبه بنور الإيمان .

ومن ثمَّ يُعَقِب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت مرض قلوبهم ،وتتعجب من ريبتهم ، وتستنكر تصرفهم الغريب : (أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟).

والسؤال الأول للإثبات ، فمرض القلب جدير بأن ينشيء مثل هذا الأثر ،وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة ، إنما هو المرض الذي تختل به فطرته عن استقامتها ،فلا تتذوق حقيقة الإيمان، ولا تسير على نهجه القويم .

والسؤال الثاني للتعجب ، فهل هم يَشُكُّون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟هل هم يشكون في مجيئه من عند الله ؟أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل ؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين .

والسؤال الثالث للاستنكار و التعجب من أمرهم الغريب ، فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ وإنه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان ، فالله خالق الجميع ورب الجميع فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه .

إنَّ حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ، لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً، وكل خلقه أمامه سواء ،فلا يظلم أحداً منهم لمصلحة أحد ، وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف،فالبشر لا يملكون لأنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة .

وحين يشرع فرد ويحكم فلا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه ، وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة ، أو كتلة من الدول لكتلة .....فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة ،إنما هي العدالة المطلقة ، التي لا يطيقها تشريع غير تشريع الله ، ولا يحققها حكم غير حكمه .

من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر ،ولا يحبون للحق أن يسود ،فهم لا يخشون في حكم الله حيفاً ، ولا يرتابون في عدالته أصلاً (بل أولئك هم الظالمون).

فأما المؤمنون حقاً فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله ،ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ،هو القول الذي يليق بالمؤمنين وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور ، (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا :سمعنا وأطعنا . (وأولئك هم المفلحون).

فهو السمع و الطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف ،السمع و الطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عَدَاه الهوى .النابعان من التسليم المطلق لله واهب الحياة المتصرف فيها كيف يشاء ،ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم ، فالله الذي خلق أعلم بمَنْ خلق.

(وأولئك هم المفلحون) .. المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم ،وينظم علاقاتهم ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، فلابد أن يكونوا خيرا ممن يدبر أمورهم وينظم علاقاتهم ويحكم بينهم بشر مثلهم ، قاصرون لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، والمفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد ،لا عِوَج فيه ولا التواء ،مطمئنون إلى

هذا المنهج ،ماضون فيه لا يتخبطون ، فلا تتوزع طاقاتهم ولا يمزقهم الهوى كل ممزق ، ولا تقودهم الشهوات والأهواء . والنهج الإلهي أمامهم واضح مستقيم ...أ- هـ [1].

• ألا ما أحوجنا – نحن المسلمين – أن نعود إلى تحكيم شرع الله ،وإلى الإذعان لما في الكتاب والسنة ،لتعود إلينا العزة و الكرامة ،ويعود الاستقرار بين أفراد الأمة الإسلامية ،إذ حياة الأمة وعزها واستقرارها يرتبط بصلاح الحكم ونظامه ،فإذا صلح نظام الحكم صلحت الأمة ، وإذا فسد نظام الحكم فسدت الأمة وزاغت عن الطريق المستقيم ، وانحلت من القيم والمبادئ والأخلاق.

ورحم الله أمير المؤمنين أبا حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد قال لأحد الولاة وهو يوصيه :(واعلم أنك إن استقمت استقامت رعيتك وإن زغت زاغت رعيتك) .

نسأل الله العلى القدير أن يمكن لدينه في الأرض ،وأن يأذن لقرآنه أن يَحكم ، ولشريعته أن تَعُمّ الأرض وأن تسود ، وما ذلك على الله بعزيز.

الدرس الثالث :- جواز الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص

ومما سبق يتجلى درس آخر ،ما أحوجنا إليه في عصرنا الحاضر ، وهو : جواز الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص ، فإذا استَجَدَّ في واقع المسلمين – من المسائل الفرعية – ما لم يأت عليه نص في الكتاب و السنة .إجتهد العلماء في استنباط حكم له على الأسس المعتمدة في الإجتهاد و الإستنباط وذلك على ضوء ما ورد في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ، وهذا ما يُستفاد من حديث معاذ رضي الله عنه السابق ، حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن وقال له: (كيف تقضى إذا عَرَضَ لك

١ – في ظلال القرآن الكريم٤/٢٥٢٦وما بعدها .

قضاء)؟ قال: أقضى بكتاب الله .قال (فإن لم تجدْ في كتاب الله)؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ .قال :(فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله) ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : (الحمد لله الذي وَفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسولَ الله)[1].

فقد أقره النبي ﷺ على اجتهاده إذا لم يجد ما يريد في الكتاب و السنة ، فَدَلَّ ذلك على جواز الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص.

وقد جرى سلف الأمة وخلفها على ذلك ، حتى اختلفت اجتهاداتهم وتعددت آراؤهم في المسائل الفرعية ، أما المسائل الأصلية فلم يختلفوا فيها ، وما ينبغي لأحد أن يختلف في الأصول ،لأن ذلك حينئذٍ سيكون من باب التقديم بين يدي الله ورسوله وهو منهي عنه كما سبق بيانه .

١ – سبق تخريجه صفحة٤٢.

على أن هذا الاجتهاد وهذا الخلاف في المسائل الفرعية كان مستَمَدًّا أيضاً من الكتاب و السنة ومعتمداً عليهما ،ولم يكن هذا الخلاف بينهم لشهوة الخلاف أو لحب الظهور ،بل كانت وجهة الجميع ببان أحكام الله تعالى حسب اجتهادهم الخالص لوجه الله تبارك وتعالى .

وكلهم – بمشيئة الله تعالى – مأجور بحسب نيته واجتهاده فقد يصيب المجتهد فيكون اجتهاده مطابقاً لما في نفس الأمر من حكم الله تعالى ،وقد يخطئ فلا يطابقه ،لكنه قد بذل جهده وأعمل فكره ، والله عز وجل لا يؤاخذه بخطئه ،بل – على العكس – يثيبه ، مصداقاً لحديث النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري وغيره ، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(إذَا حَكَمَ الْحَاكِم فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وإذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثم أَخْطَأَ فله أَجْرٌ)[1].

فالأول له أجران ،أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ،والآخر له أجر الاجتهاد فقط .

ولقد أثر عن غير واحد من المجتهدين قوله عند استنباط حكم : (إن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأً فمن نفسي).

• وإذا لم يكن هذا الاجتهاد مستمداً من هذين الأصلين العظيمين ، ولا معتمداً على هذين المصدرين الصافيين – أعني القرآن و السنة – فإنه مردود في وجه صاحبه كائناً مَنْ كان ، لقوله ﷺ (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)، وفي رواية :(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْه فَهُو رَدّ)[2].

والرَّدّ في العربية بمعنى المردود ، و المراد : هو باطل غير مُعْتَدّ بِهِ .

و الله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الدرس الرابع :- طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى

أما الدرس الرابع الذي يجب علينا أن نتعلمه من هذه الآية الكريمة فهو أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تبارك وتعالى ،لأن طاعة الرسول إنما هي في الحقيقة طاعة لله عز وجل ، لأنه صلوات ربى سلامه عليه مبلِّغ

---

١ – متفق عليه ،أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب و السنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ،برقم ٧٣٥٢ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٣/٣٣٠،

وأخرجه مسلم في كتاب الأقضية ،باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ،برقم ١٧١٦ .

صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٢٥٤.

٢ – الروايتان أخرجهما مسلم – عن عائشة رضي الله عنها – في كتاب الأقضية ،باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ،برقم ١٧١٨ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٢٥٧.

عن ربه ، ومُبَيِّن لدينه تعالى ،فواجب المؤمن أن يطيع نبيه ﷺ في كل ما أمر به أو نهى عنه وصحت نسبته إليه ﷺ ،لأنه تشريع له علينا حق الطاعة ،فإن ما أمر به الرسول ﷺ وما نهى عنه واجب الإتباع .

وقد نطق بذلك القرآن الكريم ،حيث يقول تبارك وتعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً)[1].

ونطقت بذلك أيضاً السنة النبوية المطهرة ،ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني)[2].

يقول العلامة الألوسى رحمه الله عن تفسيره الآية السابقة : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بيان لأحكام رسالته ﷺ إثر بيان تحققها ، وإنما كان كذلك لأن الآمر و الناهي في الحقيقة هو الحق سبحانه ،والرسول إنما هو مبلغ للأمر و النهى ، فليست الطاعة له بالذات ،إنما هي لمن بلغ عنه .

وفى بعض الآثار عن مقاتل أن النبي ﷺ كان يقول (من أحبني فقد أحب الله ،ومن أطاعني فقد أطاع الله)،فقال المنافقون :ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ، لقد قارف الشرك ،وهو نهى أن يعبد غير الله تعالى ، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى عليه السلام.أ.هـ[3].

---

١ – الآية ٨٠ من سورة النساء .

٢ – متفق عليه ،أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ،باب قوله تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) برقم ٧١٣٧،صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٣/١١٩،

وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، برقم ١٨٣٥.

صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٤٦٤.

٣ – روح المعاني ٥/١٣٤.

وأورد السيوطي في الدر المنثور حديثاً أخرجه ابن المنذر و الخطيب عن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه . فقال : (يا هؤلاء ألستم تعلمون أني رسول الله إليكم ، قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن الله أنزل في كتابه أنه من أطاعني فقد أطاع الله ؟ قالوا : بلى نشهد أن من أطاعك فقد أطاع الله ، وأن من طاعته طاعتك . قال : فإن من طاعة الله أن تطيعوني وإن من طاعتي أن تطيعوا أئمتكم)[1].

وقال الإمام الطبري رحمه الله عن تفسيره لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[2].

(يعني بذلك جل ثناؤه : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ربكم فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله محمداً ﷺ ، فإن في طاعتكم إياه لربكم طاعة ، وذلك أنكم تطيعونه لأمر الله إياكم بطاعته .....ثم قال : هو أمر من الله بطاعة رسوله في حياته ، فيما أمر ونهى ،وبعد وفاته في إتباع سنته ،وذلك أن الله عم بالأمر بطاعته ولم يخصص ذلك في حال دون حال فهو على العموم)أ.هـ [3]

• والقارئ للقرآن الكريم يلحظ أن الحق تبارك وتعالى قد أشار في غير موضع إلى تلازم الطاعتين – أعني طاعة الله وطاعة رسوله – فيقول تعالى (قل أطيعوا الله و الرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين)[4]

١ – أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/٩٣ بسنده عن ابن عمر ، وقال محققوه : إسناده صحيح ورجاله ثقات . وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/٥٩٨.

٢ – أول الآية ٥٩ من سورة النساء.

٣ – جامع البيان ٥/١٤٧.

٤ – الآية ٣٢ من سورة آل عمران.

٥ – الآية ١٣٢ من سورة آل عمران .

ويقول (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون)[1] ويقول (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)[1]، ويقول (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ....)[2]، ويقول (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعملوا أنما على رسولنا البلاغ المبين)[3] ويقول (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)[4] ،ويقول (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون)[5]،ويقول (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين)[6]، ويقول (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً)[7] ، ويقول (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم)[8]. ويقول (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين)[9].

• هذه الآيات الكريمات – وغيرها – تدل دلالة واضحة وصريحة على تلازم الطاعتين وتداوم الحالتين ، فمن أطاع الله فعليه بطاعة الرسول ﷺ ومن أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله ولم يطع الرسول فكأنه لم يطع الله ، فلا تصح طاعة أحدهما دون الآخر .

١ – أول الآية ٥٩ من سورة النساء .

٢ – أول الآية ٦٩ من سورة النساء .

٣ – الآية ٩٢ من سورة المائدة.

٤ – آخر الآية الأولى من سورة الأنفال.

٥ – الآية ٢٠من سورة الأنفال.

٦ – الآية ٥٤ من سورة النور.

٧ – آخر الآية ٧١ من سورة الأحزاب.

٨ – الآية ٣٣ من سورة محمد .

٩ – الآية ١٢ من سورة التغابن.

١٠ – من الآية ١٢ من سورة التغابن . ١١ – من الآية ١٤من سورة لقمان .

١٢ – من الآية٤٣ من سورة البقرة .

وفى الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ثلاث في القرآن مقرونة بثلاث لا يعتد بواحدة منها دون الأخرى ، قوله تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول)[10] ، وقوله تعالى (أن اشكر لي ولوالديك)[11] ، وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)[12].

فمن أطاع الله ولم يطع الرسول ﷺ لا تقبل منه طاعة الله ،ومن شكر لله ولم يشكر لوالديه لا يقبل منه شكره لله ، ومن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة لا تقبل منه صلاة ، والله أعلم.

• وكما قلنا سابقاً عن الإقتداء والحكم إنهما من مقتضيات الإيمان وليسا عن هوى واختيار .

كذلك نقول هنا : إن طاعة النبي ﷺ ليست طاعة هوى واختيار ،إن شاء المرء فعل وإن شاء ترك،كلا. وإنما هي طاعة إلزام ووجوب ،وجزء من حقيقة الإيمان ،ولهذا قال الله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله)[1].

وقد أجمع أهل التفسير وعلماء الأمة على أن طاعة النبي ﷺ تعني الالتزام بسنته والسير على طريقته والاهتداء بهديه وامتثال أمره واجتناب نهيه.

وجماع الأمر في طاعته ﷺ قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب)[2].

وليعلم المؤمن أن طاعته لنبيه ﷺ هي السبيل إلى الهداية ، مصداقاً لقوله تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا)[3]، كما أنها السبيل إلى دخول الجنة ، ففيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اله قال : (كل

---

١ – أول الآية ٦٤ من سورة النساء.

٢ – آخر الآية ٧ من سورة الحشر.

٣ – من الآية ٥٤ من سورة النور

أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى .قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)[1].

إن هذه – وغيرها – كلها دلائل من القرآن و السنة تدل على وجوب طاعة النبي ﷺ وامتثال أمره، وأن في طاعته ﷺ طاعة لله تبارك وتعالى . وبذلك تقطع الحجة على كل متنطع في الدين يريد أن يأخذ بالقرآن وحده ويترك السنة فإنهما صنوان لا يفترقان ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله تعالى .

ولكننا – وللأسف الشديد– نجد من بين صفوف المسلمين بعض المتنطعين الذين اختلط عليهم فهم الإسلام ، فراحوا يتخبطون في ظلمات الجهل ودروب التيه يتنكرون لسنة النبي ﷺ ، محتجين – على جهلهم هذا– بما في كتاب الله تعالى ، مدعين أنهم قد أوتوا من العلم والفهم ما لم يؤت غيرهم، فيقولون : بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، لا نزيد عليه ولا ننقص منه ، بل ويزيد أمرهم سوءاً بطعنهم في سنة الحبيب المصطفى ﷺ ، وفى علماء الحديث ،وفى كتب السنة الصحاح وغيرها من المصادر المعتمدة .

ويا ليتهم فقهوا كتاب الله تعالى وتأدبوا بآدابه ، فلو أحسنوا الفقه لوقفوا متأدبين خاشعين عند حدود الله تعالى ، ولعلموا أن ما شرع رسول الله ﷺ مثلما شرع الله تعالى ، لأنه ﷺ هو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ،إن هو إلا وحى يوحى .

ولو أنهم فقهوا كتاب الله تعالى لعلموا أن هناك أمور تشريعية انفردت بها السنة النبوية ، ولم ينصّ

---

١ – أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ
حديث رقم ٧٢٨٠، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢٦٣/١٣.

عليها في القرآن الكريم ، فهل نضرب بما انفردت به السنة عرض الحائط ،وأين نذهب بقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب)[1].

ولو أنهم قرأوا كتاب الله تعالى وفقهوه لعلموا منه أن السنة النبوية وحي كالقرآن تماماً ،إلا إنها غير متلو ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى في القرآن (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً)[2]، والمقصود بالحكمة – كما قال أهل التفسير – السنة النبوية المطهرة ،على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

• لقد تنبأ الرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف بهذا الصنف الزائغ عن الحق ،المتنطع في الدين،المتبع لهواه ،المنكر لسنة نبيه ﷺ في كل عصر ومن كل جيل ،فقال ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة في سننهم من حديث أبى رافع أن رسول الله ﷺ قال :(لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول :لا أدرى . ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)[3].

• كما أخرج الثلاثة أيضاً من حديث المقدام بن معد يكرب الكندي ،أن رسول الله ﷺ قال : (ألا إني

---

١ – آخر الآية ٧ من سورة الحشر.

٢ – آخر الآية ١١٣ من سورة النساء .

٣ – أخرجه الترمذي في كتاب العلم ، باب ما نهى عنه أنه يقال عند حديث رسول الله ﷺ ، برقم ٢٦٧٢، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، سننه ٣٠٢/٤ ، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، برقم ٤٦٠٥ ، سننه ١٩٩/٤ ، وأخرجه ابن ماجة في المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ، برقم ١٣. سننه ٧/١ ، وقوله ﷺ (لا ألفين) صيغة متكلم مؤكدة بالنون الثقيلة ،من ألفيت الشيء :وجدته ،وظاهره : نهى النبي ﷺ نفسه عن أن يكون علي هذه الحالة . و المراد : النهى عن تلك الحالة ، وقوله ﷺ (متكئاً علي أريكته) أي جالساً علي سريره المزين .

أوتيت الكتاب ومثله معه ،لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن ،فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ،وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)[1].

وفى رواية الترمذي وابن ماجة :(..فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ،فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ،ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله)[2].

ولقد ضرب لنا السلف الصالح – رضوان الله عليهم – أروع الأمثلة في الطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ وإتباعه في كل شيء ، سواء فقهوا سرّ التشريع أم لم يفقهوه ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً منها ما رواه الشيخان أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ،ولولا أنى رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك)[3].

وأخرج الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : ما تركت استلام هذين الركنين اليماني و الحجر مذ رأيت رسول الله ﷺ يستلمهما في شدة ولا رخاء .[4]

ومما روى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يقول : (لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل

---

١ – أبو داود في الموضع السابق .

٢ – الترمذي وابن ماجة في الموضعين السابقين ، وقال الترمذي حديث حسن .

٣ – متفق عليه . أخرجه البخاري – واللفظ له – في كتاب الحج ،باب ما ذكر في الحجر الأسود برقم ١٥٩٧ ، وأخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ، برقم ١٢٧٠ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٥٤٠/٣،صحيح مسلم بشرح النووي ٢١/٥.

٤ – أخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب استحباب استلام الركنين ، برقم ١٢٦٨. صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/٥.

به إلا عملت بـه ، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ).

• يقول القاضي أبو بكر بن العربي :قوله تعالى (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله).

أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ وإيجاب إتباعه والإقتداء به ولذلك قال النبي ﷺ في مرضه (مروا أبا بكر فليصل بالناس). فقالت عائشة لحفصة قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وأنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس من البكاء ، فمر عليا فليصل بالناس .فقال النبي ﷺ : (إنكنّ لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس) [1].

يعنى بقوله : صواحب يوسف .الفتنة بالرد عن الجائز إلى خير الجائز [2].

وعلى المؤمن أن يتذكر دائما تحذير الحق سبحانه وتعالى من عصيان نبيه ﷺ ، حيث يقول تعالى في القرآن الكريم (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [3].

نسأل الله العلى القدير أن يجعلنا من عباده الصالحين ،الطائعين لنبيه ﷺ المتبعين سنته،السائرين على دربه

---

١ – هذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب و السنة ، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع ،برقم ٧٣٠٣ ، وبلفظ : عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال في مرضه : (مروا أبا بكر يصلى بالناس . قالت عائشة : قلت إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة : فقلت لحفصة : قولي إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس ففعلت حفصة ، فقال رسول الله ﷺ : إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل للناس . فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً) أ.هـ

صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢٩٠/١٣.

٢ – أحكام القرآن ١٤٥/٤

٣ – آخر الآية ٦٣ من سورة النور

،المهتدين بهديه ، الممتثلين أوامره المجتنبين نواهيه ، المحشورين تحت لوائه ،في زمرة الذين قال الله فيهم : (ومن يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً)[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدرس الخامس :– التقوى

روضة قرآنية ودعوة ربانية

لقد عرضت الآية – فيما عرضت – قضية التقوى ، فأمر بها سبحانه وتعالى في خاتمة الآية الأولى فقال (واتقوا الله إن الله سميع عليم)، ومدحت الآيات بعد ذلك الممتثلين أمره سبحانه فقال تعالى (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى).

• وقضية التقوى من قضايا الجوهر في الدين الإسلامي ،لذلك كانت وصية الله لجميع خلقه ووصية رسوله ﷺ لأفراد أمته ،ولم يزل السلف الصالح – ومن تبعهم – يتواصون بها أبداً أبداً.

وقد سبق في المباحث التفسيرية أن تقوى العبدُ لربه تعنى أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويحذره – من غضب الله وسخطه وعقابه – وقاية تقية من ذلك ، بفعل الطاعات وترك المعاصي و المنكرات .

ونزيد ما قلناه سابقاً بأن هذه التقوى المنجية التي أمر الله بها لا تتحقق إلا بإتباع أوامره تعالى واجتناب نواهيه ، وهذه الأسوار الواقية لا تبتنى إلا بالوقوف عند حدود الله تعالى التي بينها للناس ،وحددها لهم ،وحذرهم من تعديها .

وإذا اتقى الإنسان ربه أكرمه سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة بكرامات كثيرة منها:–

---

١ – الآية ٦٩ من سورة النساء

• معية الله للمتقين ، قال تعالى(واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)[1]، وقال (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[2].

• كما أنه سبحانه وتعالى شرف المتقين بحبه لهم فقال(إن الله يحب المتقين) [3]

• وضمن لهم النجاة مما يحذرون ،والرزق الحلال من حيث لا يحتسبون وتفريج الكروب ،والنجاة من الشدائد ،فقال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)[4]، وقال(ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا)[5]، وقال (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)[6].

وقال (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ..)[7].

• كما تعهد لهم بتكفير السيئات وإعظام الأجر ،فقال تعالى (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً)[8].

• وأعد لهم مقاعد صدق في دار العزة والكرامة والخلود ،فقال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين)[9].

• وجعلها الحق سبحانه للمؤمنين خير زاد وخير لباس ،فقال

١- آخر الآية ١٩٤ من سورة البقرة .

٢ - آخر سورة النحل .

٣ - آخر الآية ٤وآخر الآية ٧ من سورة التوبة ،

وفى سورة آل عمران /٥٧ (فإن الله يحب المتقين) بزيادة الفاء.

٤ - آخر الآية ٢ والآية ٣ من سورة الطلاق.

٥ - آخر الآية ٤ من سورة الطلاق.

٦ - الآية ٥٣ من سورة النمل ، وفى سورة فصلت /١٨(ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) بإسقاط الهمزة .

٧ - أول الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

٨ - آخر الآية ٥ من سورة الطلاق.

٩ - الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

تعالى (و تزودوا فإن خير الزاد التقوى)[1]، وقال (ولباس التقوى ذلك خير)[2].

• وبالجملة فإن تقوى الله هي طريق السعادة الموصل إلى رضوان الله تعالى وجنة الخلد .

ألا ما أحوج الإنسان – في هذه الحياة المليئة بالأشواك –إلى التسلح بسلاح التقوى ، حتى يستطيع أن يجتاز غمار هذه الحياة مكرماً مرفوع الرأس محبوباً مسيداً ،ولن يستطيع أن يحقق ذلك إذا لم يتسلح بتقوى الله ، فيستمد منه العون والقوة و الهداية .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله عند تفسير قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)[3]

(الهدى حقيقته ، والهدى طبيعته ، والهدى كيانه ، والهدى ماهيته ..

ولكن لِمنْ ؟

لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً ؟.للمتقين . فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب ، هي التي تفتح مغاليق القلب له فيدخل ويؤدى دوره هناك،هي التي تهيئ لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب .

لابد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم ، بقلب خالص .

ثم أن يجئ إليه بقلب يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة ، أو أن تستهويه ضلالة وعندئذٍ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقيا،خائفاً ، حساساً ، مهيأً للتلقي ....

ورد أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سأل أبى بن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت

---

١ – الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

٢ – من الآية ٢٦ من سورة الأعراف .

٣ – الآية ٢ من سورة البقرة.

طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى ! قال : فما عملت ؟ قال شمرت واجتهدت .قال : فذلك التقوى .....

فذلك التقـوى...حساسـية في الضمير ،وشفافية في الشعور ،وخشية مستمرة وحذر دائم ، وتوق لأشواك الطريق ...طريق الحياة الذي تتجاذبه أشـواك الرغائـب والشـهوات ، وأشواك المطامع والمطامح ، وأشواك المخاوف والهـواجس ، وأشـواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابـة رجاء، والخوف من الكذب ممـن لا يملك نفعاً ولا ضـراً .. وعشـرات غيرها من الأشواك) أ.هـ[1].

لذلك كانت التقوى بحق هـي سلاح النجاة في الـدارين • يقـول الإمام الرازي :

(.. أي ليرزقهـم الله التقـوى التي هي حق التقاة ، وهـي الـتي لا تخشى مع خشية الله أحداً ، فتراه آمناً من كل مخيف ،لا يخاف في الدنيا بخساً ولا يخـاف في الآخـرة نحساً[2]، والناظر العاقل إذا علم أن بـالخوف من السلطان يأمن جـور الغلمـان ، وبتجنب الأراذل ينجو مـن بـأس السلطان فيجعل خوف السلطان جنة . فكذلك العالم لو أمعن النظر لعلـم أن بخشية الله النجاة في الـدارين ، وبالخوف من غيره الهـلاك فيهمـا ، فيجعل خشية الله جنته التي يحرس[3] بهـا نفسـه في الـدنيا والآخـرة) أ.هـ[4].

• ونختـم الحـديث في هـذا الدرس بما روى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال :

---

١ – في ظلال القرآن ١/٣٨،٣٩.

٢ – النحسُ : ضـد السـعد . الصحاح ١/٧٧٤، لسان العرب ٦/٢٢٧مادة نحس .

٣ – أي يحفظ نفسه ، من الحراسة وهي الحفظ ، واحترس منه : توقاه ، والذي عند الرازي (يحس) بدل(يحرس)، وصححت على ما فهم من السياق ، ولعله خطأ مطبعي ، والله أعلم.

٤ – التفسير الكبير ٢٨/١٠٠.

قرأ رسول الله ﷺ هذه الآيـة (ومن يتق الله يجعل له مخرجـا)[1]، ثم قال : يا أبا ذر : (لـو أن النـاس كلهم أخذوا بها لكفتهم)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، ومـن أحـب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .ومن أحب أن يكون أغـنى النـاس فليكن بما في يـد الله أوثـق ممـا في يده)[3].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ (اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحهـا وخالق الناس بخلق حسن)[4].

• نسأل الله تعالى أن يجعل لنـا من كل هم فرجاً ، ومن كل ضـيق مخرجاً وأن يرزقنا من حيث لا نحتسب ..آمين يا رب العالمين .

الدرس السـادس: مراقبـة الله تعالى

إن الكلام في هذا الدرس بعـد الدرس السابق هو من بـاب ذكـر الخاص بعد العام ،لأن مراقبة الله تعالى في الحقيقة جزء من التقوى ، فالمراقبة تعني : علم القلب بقرب الرب ،وهو داخل في التقوى ، فمعنى قوله تعـالى (اتقوا الله) أي اعلموا أنه علـيكم

---

١ – آخر الآية ٢ من سورة الطلاق.

٢ – أخرجه الحاكم في كتاب التفسـير ، في سورة الطـلاق ، بـرقم ٣٨١٩ ، وقـال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي في التلخيص ، المستدرك ٢/٥٣٤، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٨/١٩٨.

٣ – أورده السيوطي في الدر المنثور ٨/٢٠، وذكره الرازي في تفسيره ٢/ ٢٠.

٤ – أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معاشرة الناس ، برقم ١٩٩٤ ، وقال : حسـن صـحيح ، سـننه ٣/٣٩٨، وأخرجه الحاكم في كتـاب الإيمـان ، بـرقم ١٧٨وقال : صحيح على شرط الشـيخين ، ووافقه الـذهبي في التلخـيص ، المسـتدرك ١/١٢١، وذكره الحنبلي في جـامع العلـوم والحكم /١٦٥ وتوسع في الحكم عليه .

رقيب ، وعلى أعمالكم شهيد وبضمائركم خبير بصير ، وهو معكم أينما كنتم في كل زمان ومكان يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون .

لذلك نلحظ في الآية الكريمة أن الأمر بالتقوى وقع بين إشارتين إلى علم الله المحيط بكل شيء ، الإشارة الأولى في قوله تعالى (بين يدي الله) التي تدل على الحضور ، فهو سبحانه وتعالى حاضر دوماً وأبداً وهو قائم على كل نفس بما كسبت ، فإذا عمل الإنسان عملاً أو فعل فعلاً فكأنما فعله بين يديه تعالى وأمام سمعه وبصره ،لأنه سبحانه لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء ،يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور قال تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم)[1].

والإشارة الثانية في قوله تعالى (إن الله سميع عليم) ، فهو سبحانه يسمع كل ما ينطق ويعلم كل ما يفعل ،لا تخفى عليه خافية وهو بكل شيء عليم سبحانه وتعالى يعلم الدقائق والعظائم ،يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن ، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ،لا يحيط بعلمه شيء، وهو محيط بكل شيء ، وعليم بكل شيء ،وقدير على كل شيء ، يقول تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر و البحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)[2].

● ولعل هذا الارتباط الوثيق بين التقوى والمراقبة هو السر في أننا نجد القرآن الكريم كثيراً ما يشير إليهما في موطن واحد ،ويجمع بينهما في آية

١ – الآية ٧ من سورة المجادلة .

٢ – الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

واحدة ، فيأمر الحق سبحانه عباده بتقواه من أجل مراقبة الله تعالى لهم ومن ذلك قوله تعالى " واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم [1]، وقوله (واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير)[2]، وقوله (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً)[3]،وقوله (واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور)[4]، وقوله (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)[5]، وخاطب الله تعالى نساء النبي ﷺ قائلاً لهن (واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً)[6]،وقال تعالى في آيتنا هذه (واتقوا الله إن الله سميع عليم)[7].

ولذلك لم يزل السلف الصالح يوصى بعضهم بعضاً بتقوى الله ومراقبته في السر و العلانية ، فقد كتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له : أما بعد أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك ، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك ، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك واعلم أنك بعينه لست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه حذرك ،وليكثر منه وجلك ، والسلام [8].

وكان وهب بن الورد يقول : (خف الله على قدر قدرته عليك ، واستحى منه على قدر قربه منك)[9].

والعاقل من الناس هو من يستشعر رقابة الله عليه ،هو من يعلم أن الله تعالى أقرب إليه من الدم الذي

١ – آخر الآية ٢٣١ من سورة البقرة .

٢ – آخر الآية ٢٣٣ من سورة البقرة .

٣ – آخر الآية ١ من سورة النساء .

٤ – آخر الآية ٧ من سورة المائدة.

٥ – آخر الآية ٨ من سورة المائدة ، وآخر الآية ١٨ من سورة الحشر.

٦ – آخر الآية ٥٥من سورة الأحزاب.

٧ – آخر الآية ١ من سورة الحجرات.

٨ – جامع العلوم و الحكم صفحة ١٧٠ .

٩ – المرجع السابق صفحة ١٧١.

يجرى في عروقه ،يقول تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[1]. فالله عز وجل يعلم ما توسوس به نفس الإنسان من خطرات وهواجس، لأن الله هو الذي خلقه وأبدعه وأوجده على غير مثال (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)[2].

فكيف بهذا الإنسان وهو في قبضة الجبار المطلع على ما في الصدور . كيف بالإنسان وهو في رقابة الواحد الديان الذي لا يغفل ولا ينام . (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء)[3].

يقول تعالى على لسان لقمان – عليه السلام – لابنه وهو يعظه : (يا بنى إنها إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير)[4].

فأنت – أيها المخلوق الضعيف – تحت رقابة جبار السماوات والأرض أنت تحت رقابة الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ،أينما ذهبت فالله معك (وهو معكم أينما كنتم و الله بما تعملون بصير)[5].

فأين تذهب يا عبد الله بالمعصية ،أين تذهب بفعل السوء وقالته ، وهو سبحانه وتعالى يسمع ويعلم سرك ونجواك ،ولقد سمع الله قول التي جاءت إلى النبي ﷺ تشتكى زوجها ، والسيدة عائشة – راوية القصة – رضي الله عنها كانت في بيت رسول الله ﷺ تتبين وتسمع بعض الكلام ولا تسمع البعض الآخر ،تقول السيدة

---

١ – الآية ١٦ من سورة ق.

٢ – الآية ١٤ من سورة الملك.

٣ – الآية ٥ من سورة آل عمران .

٤ – الآية ١٦ من سورة لقمان .

٥ – آخر الآية ٤ من سورة الحديد.

عائشة :(تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبه ، ويخفى على بعضه ،وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ).....الحديث [1].

فسبحان من وسع سمعه كل المسموعات ، وأحاط علمه بكل المعلومات .

فليتق الإنسان ربه في علانيته وسره ،فتقوى العبد لربه هي السبب الموجب لخشيته تعالى في السر ،فإن من علم أن الله يراه حيث كان ،وأنه مطلع على ظاهره وباطنه وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته . أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر .

ومن أعظم ما يعين العبد على مراقبة الله تعالى علمه بأن الله يراه ويراقبه فليستح منه أن يراه تعالى على معصية ،قال أبو الجلد :أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي ، إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بي ، وإن كنتم ترون أن أراكم فلم تجعلوني أهون الناظرين إليكم .

وقال رجل لوهب بن الورد عظني . فقال له : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك [2]. قال تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً)[3].

---

١ – أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق ، باب الظهار ،برقم ٢٠٦٣ ،سننه ٦٦٦/١، وأخرجه الحاكم في كتاب التفسير ، في سورة المجادلة،برقم ٣٧٩١ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي في التلخيص المستدرك ٥٢٣/٢ ، وأخرجه الطبري في الجامع ٦،٥/٢٨

٢ – جامع العلوم و الحكم ، صفحة ١٧٠ ، ١٧١.

٣ – الآية ١٠٨ من سورة النساء .

جاء في الأثر : إن الله تعالى يقول للعبد إذا عصاه : (عبدي ..أجعلتني أهون الناظرين إليك).

استحييت يا عاصي من الناس ولم تستح من الله ، واستخفيت من الناس ولم تستخف من الله ، فيا عبد الله :

إذا ما دعتك النفس لريبة في ظلمة الليل والنفس داعية إلى الطغيان
فاستح من نظر الإله وقل لها يا نفس إن الذي خلق الظلام يراني

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ينشد كثيراً قول القائل :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

وكان ابن السماك ينشر:

يا مدمن الذنب أما تستحي والله في الخلوة ثانيكا
غرك من ربك إمهاله وستره طول مساويكا

و بالجملة : فإن مراقبة الله تعالى في السر هي علامة كمال الإيمان ، ولها تأثيرعظيم في إلقاء الله لصاحبها الثناء في قلوب المؤمنين .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر ، يخلو بمعاصي فيلقى الله له البغض في قلوب المؤمنين .

وقال سليمان التيمى :إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته [1] .

فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله ،فإن من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، والشقي من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني

---

١ – جامع العلوم و الحكم صفحة ١٧٠ وما بعدها بتصرف .

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك ، وأسعدنا بتقواك ، ومتعنا برؤياك. واجمعنا بنبيك ومصطفاك ، وارزقنا الإخلاص قولاً وعملاً ، سراً وجهراً.آمين...

وبعد :

فهذا ما وفقني الله إليه في هذا البحث ، وقد بذلت قصارى جهدي ليخرج بصورة مرضية لكل من اطلع عليه ، فإن كنت أصبت فهو محض فضل من الله وحده ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي وتقصيري ، وأرجوا من الله غفران الذنوب ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور
أحمد رمضان مصطفى دياب
مدرس التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

فهرس المراجع و المصادر

١- القرآن الكريم . كلام رب العالمين . برواية حفص عن عاصم .

٢- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ،للبناء ،ط دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٣- الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطى ،تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار التراث بالقاهرة ،بدون تاريخ .

٤- أحكام القرآن ،لابن العربي ،تحقيق / محمد عبد القادر عطا ،ط دار الفكر بدون تاريخ .

٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المشهور بتفسير أبي السعود ط.دار الفكر،بدون تاريخ .

٦- أسباب النزول ، للواحدى النيسابورى . مكتبة المتنبي بالقاهرة

٧- أعلام الموقعين عن رب العالمين ،لابن القيم ، ط دار الحديث بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م.

٨- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للقاضي البيضاوي ، المشهور بتفسير البيضاوي ،ط الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى بدون تاريخ .

٩- البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، ط دار الفكر سنة ١٤١٢هـ .

١٠- البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

١١- التحرير والتنوير ،لابن عاشور ، ط الدار التونسية ، سنة ١٩٨٤م.

١٢- تفسير الخازن ، المسمى : لباب التأويل في معاني التنزيل ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٣- تفسير القرآن العظيم ، المشهور بتفسير ابن كثير ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠م.

١٤- التفسير الكبير ،أو مفاتيح الغيب ، للإمام الرازي ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

١٥- تفسير النسفي ،لأبي البركات النسفي ،ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ

١٦- التلخيص ،للذهبي ، مطبوع على هامش المستدرك ، وسيأتي .

١٧- جامع البيان في تأويل آي القرآن ، المشهور بتفسير الطبري ط الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.

١٨- جامع العلوم و الحكم ،لابن رجب الحنبلي ،تحقيق / محمود النادي ط دار الهيثم بالقاهرة، سنة ٢٠٠٤م.

١٩- الجامع لأحكام القرآن ، المشهور بتفسير القرطبي ، ط دار الكتب العلمية ،الطبعة الخامسة سنة١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٠- حاشية الجمل على الجلالين ، المسماة : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ .

٢١- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، المسماة : عناية القاضي وكفاية الراضي ، للشهاب الخفاجي ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٢- حاشية الصاوي على الجلالين ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ.

٢٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي ، ط دار الفكر سنة ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

٢٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، المشهور بتفسير الألوسي ، ط دار الفكر سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٥- سنن ابن ماجة ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي بمصر بدون تاريخ.

٢٦- سنن أبي داود ، ط دار الحديث بالقاهرة ، سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٧- سنن الترمذي ، ط دار الفكر ببيروت ، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٨- الصحاح ، المسمى : تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري تحقيق / شهاب الدين أبو عمرو ، ط دار الفكر ،

الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٩- صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ،ط دار الريان بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٣٠- صحيح مسلم بشرح النووي ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٣١- فتح القدير ، للشوكاني ، ط دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ.

٣٢- فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم للأستاذين الجليلين : د/ أحمد الكومي ، د/ محمد يوسف القاسم ط الحلبي بمصر.

٣٣- في ظلال القرآن ، للشهيد سيد قطب ، ط دار الشروق ،الطبعة الرابعة والثلاثون ،سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل والمشهور بالكشاف ،للزمخشري ، ط دار الكتب العلمية الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

٣٥- لباب النقول في أسباب النزول ، للسيوطي ،

٣٦- لسان العرب ،لابن منظور ،ط دار صادر - بيروت- الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ -١٩٩٤م.

٣٧- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ،لابن جني تحقيق /محمد عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٣٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ،لابن عطية الأندلسي تحقيق / عبد السلام عبد الشافي ،ط دار الكتب العلمية ،

الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣٩- مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ، ط دار الفكر الطبعة الثانية .

٤٠- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري - وبهامشه كتاب التلخيص للذهبي - ،ط دار الكتب العلمية ،الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ .

٤١- المعجم الوجيز ،إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،ط وزارة التربية و التعليم بمصر، سنة ١٤١١هـ -١٩٩٠م.

٤٢- مفردات غريب القرآن ،للراغب الأصفهاني ، تحقيق / محمد سيد كيلاني ط دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ .

٤٣- النشر في القراءات العشر ،لابن الجزري ،ط دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٤٤- نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ، للبقاعي ،تحقيق / عبد الرزاق غالب المهدي ، ط دار الكتب العلمية .

والله أعلم

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
التمهيد	٤
القراءات القرآنية	١٣
سبب النزول	١٤
المباحث العربية ومعاني المفردات	١٦
المباحث التفسيرية	٢٢
المعنى الإجمالي العام	٣٨
فقه الآية والدروس المستفادة منها	٤١:٦٧
الدرس الأول : حتمية الإقتداء بالكتاب والسنة	٤١
الدرس الثاني : الحكم لله وحده ولرسوله المبلغ عنه	٤٥
الدرس الثالث : جواز الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص	٥١
الدرس الرابع : طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله	٥٣
الدرس الخامس: التقوى روضة قرآنية ودعوة ربانية	٥٩
الدرس السادس: مراقبة الله تعالى	٦٣
فهرس المراجع و المصادر	٦٩
فهرس الموضوعات	٧٢